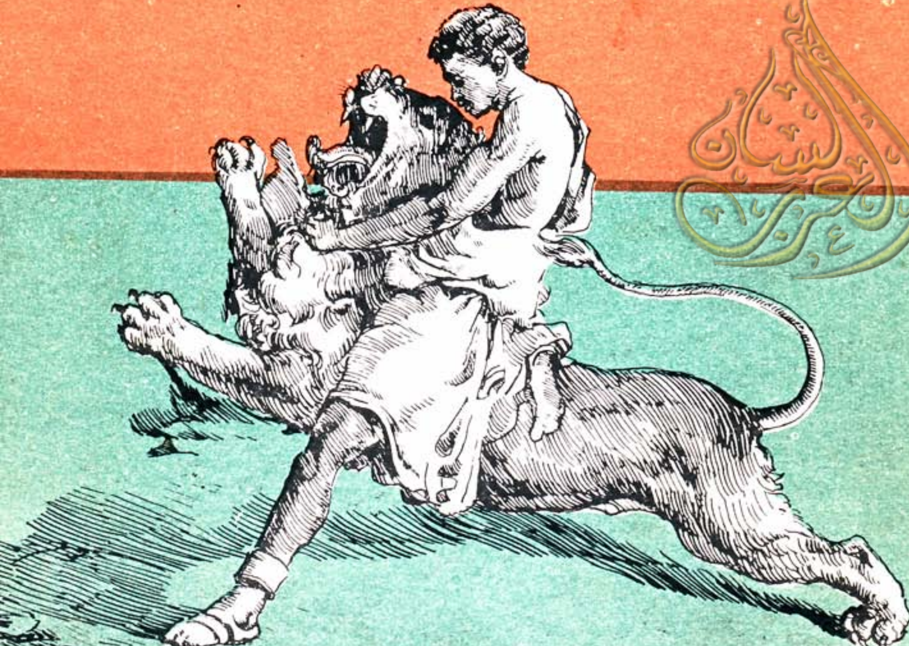
عنترة بن شدّاد

١



دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

١

تأليف

حسن جوهر — محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

دار المعارف بمصر

١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يراد بالقصة ما رُوىَ أو كتب من حوادث وقعت فعلا ، كالذى نقرؤه فى بعض كتب القصص والرحلات مثل كتاب العقد الفريد ، ورحلة ابن بطوطة ، وما جاء على شاكلتهما ؛ أو ما روى أو كتب من حوادث صاغها خيال الواضع ، وأنشأها إنشاء ، دون أن يكون لها حقيقة خارجية وقعت بالفعل . وكلا هذين النوعين : الواقعى والخيالى ، يجىء لتصوير ناحية من نواحى المجتمع ، أو للإبانة عما فيه من محاسن ومساوئ ، أو للعظة والاعتبار ، أو للتفكه والتلهى ، أو غير ذلك . وقد يجنح الواضع للقصة فى النوع الذى يبتكره خياله إلى ذكر حوادث خارقة للعادة ؛ كالذى نجده كثيراً فى كتاب ألف ليلة وليلة ، وقصة سيف بن ذى يزن ، ومنه الأمثال المنسوبة إلى إيزوب اليونانى ، ولافونتين الفرنسى .

وقد أشربت النفوس قديماً حبّ القصة ، لما وجدته فى ظلالها من راحة ومتعة . وقد وجد فيها دعاة الإصلاح خير حافز للهمم ، وأنشط أداة لتنبيه الأحاسيس الراقدة ، والعواطف الخامدة ، والمواهب الخدرة ، ولهذا

كان للقصة حظ موفور من العناية بها ، والإقبال عليها ، فى جميع الأمم .

وقد استمدت القصة وجودها من تنازع البقاء ، الذى هو من ضرورات الأحياء ، والذى تجلى منذ القدم بين الإنسان وغيره من الحيوان والطبيعة ، وبين بعضه وبعض ، فصورت القصة حوادث الطبيعة والحروب ونكاية الحيوان بالإنسان ، ونما وجودها وامتد ، حتّى اتسع للأساطير والخرافات ذات الأهداف المختلفة ، والغايات المتنوعة .

وكان لتباين الأمم فى بيئاتها وأحوالها ومميزاتها وما تعارف عليه أبناؤها — أثر كبير فى أن كان لكل أمة من القصة تراث خاص بها ، حتّى كان من الحق أن تكون القصة مرآة ترى فيها صورة الأمة ، وأن تكون رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى غير « الكوميديا الإلهية » لدانتى ، وهما غير رواية « الفردوس المفقود » لملتن ؛ وأن تكون إلياذة هوميروس غير قصة عنترة .

ولم يغفل القرآن الكريم شأن القصة فى تهذيب الإنسان وحمله على التفكر ، فجاء بكثير من القصص ، حتّى كانت القصة تنزل بها سورة كاملة ، كسورة يوسف عليه السلام .

وقد ارتفع شأن القصص فى الإسلام ، حتّى كان عملاً رسميًّا يضطلع به رجال رسميون لقاء أجر يعطونه ، وحتّى جمعوا بينه وبين القضاء ، ومنهم سليمان بن عمر النجيبى بمصر سنة ٣٨هـ ، وقد وجدت القصة عناية فائقة بمصر فى عهد الفاطميين ، إذ اتخذوها سبيلا إلى قلوب العامة ،

واجتماعهم على محبة آل البيت وشيعتهم ، والالتفاف حولهم ، وكان ازدهارها فى هذا العهد سبباً فى أن وضعت قصة من أعظم القصص العربية ، وهى قصة عنترة .

وقصة عنترة أطول القصص العربية وأجدرها أن تسمى إلياذة العرب ، اشتهرت وذاعت ، ونالت إعجاب الناس فأقبلوا عليها وشغفوا بها ، يشير إلى ذلك ما حكى أن تاجراً من حمص ، كانت تنتظمه فيها حلقة القصاص كل ليلة ، فحبسته بعض أعمال له فى حانوته ، وشغلته عن المدة التى كان يتعشّى فيها ، ثم أقفل حانوته وتوجه إلى القصاص مرجئاً تناول عشائه حتّى لا يفوته شىء من قصة عنترة ؛ وانفضت جلسة القصاص عند حبسه عنترة فى سجن كسرى ، ورجع التاجر إلى بيته حزيناً على عنترة ، فلما وضعت زوجته المائدة أمامه رفسها برجله ، وجعل يسب ويشتم فى ثورة كثورة الجنون ، وأبى أن يأكل وينام وعنترة فى سجنه ، فغادر منزله إلى بيت القصاص وطرق بابه وأيقظه من نومه ، ورجاه أن يقرأ عليه القصة حتّى يخرج عنترة من السجن ويأخذ ما يرضيه من الدراهم ، فجعل القصاص يقرأ على التاجر إلى أن انكشفت عن عنترة بليته ، فشكره التاجر ورجع إلى بيته هادئاً مسروراً ، وهناك اعتذر لزوجته عما فعله ، وشرح لها سببه ، وتناول عشاءه ونام .

أما الخاصة من الناس فلم تكن منزلة القصة فى نفوسهم أقل منها فى

نفوس العامة ، فكتب الأدباء والمستشرقون فيها كتابة ضافية ، وأخرجوا منها قصصاً فى كتيبات مستقلة .

ولم تُجدِ الدراسات ولا البحوث شيئاً فى معرفة من ألفها ، فتشعبت الآراء ، وليس بمعروف معرفة يقينية من ألفها ولا متى ألفت .

فهذا يعزوها إلى الأصمعى أحد رواة القرن الثانى للهجرة ، ولكن أخطاءها النحوية والصرفية واللغوية ، وبلوغها من ضعف الأسلوب إلى حد الإسفاف ، يباعد بينها وبين الأصمعى .

وذاك يعزوها إلى الراوية يوسف بن إسماعيل المصرى ، إذ كانت له حظوة لدى العزيز بالله الخليفة الفاطمى فى القرن الرابع للهجرة ، فأمره أن يضعها ليصرف الناس عن الحديث فى بيت الخليفة بما يريبه ، وينشب الظنون الخاطئة به ، فإن الريبة المظنونة إن تناقلتها الألسنة استقرت .

وثالث ينسبها إلى أبى المؤيد بن الصائغ العنترى ، وهو عراقى وطبيب وشاعر .

ورابع يعزو وضعها إلى أقلام عدة ، تناولتها بالكتابة ، لأن ما فيها من الخلط فى التاريخ ، ومن الأخطاء الكثيرة المتنوعة لا يعزّز نسبتها إلى مؤلف واحد بعينه .

وربما كان من الراجح أنها وضعت فى أواخر القرن الرابع الهجرى حوالى سنة ٣٨٠ هـ .

وقد تناولها الخيال المطلق الحر ، فجاءتنا مشتملة على حوادث تاريخية

لا تخلو من مبالغة أو تحريف أو كذب ، وعقائد إسلامية فى العصر الجاهلى عصر عبادة الأصنام والأوثان ، وعلى الرغم من ذلك فلا تزال واضحة التصوير لحياة الصحراء ، ومنفذاً للقارئ ينفذ منه إلى أيام العرب فى العصر الجاهلى ، فيشهد فيهم العرف والعادة والخلق والحكم السياسية .

وقد تناولت حوادث كثيرة وشخصيات عدة ، وحالات متقلبة ، فهنا حقد يشع مكراً ودسيسة ، وهناك مفاجأة باغتة ، وهذه غارة تشن ، وتلك رحلات بعيدة الشقة ، وهؤلاء فرسان يقتتلون ، إلى غير ذلك مما ورد فيها .

وبطلها عنترة الذى ولد فى بيت الرق ، ودرج فى حجر العبودية ، ونشأ من نسب وضيع لأمه ، فى وقت يقدس العرب فيه الحسب والنسب وعنصر الدم ، كما ولد فى تصوير القصة عالى الهمة عزيز الجانب ، له إرادة صارمة ، وعزم مشبوب لا تخبو ناره ، استطاع أن يستوى جالساً على عرش من سؤدد لا يسامى على الرغم مما وضع فى طريقه من عقبات ومخاطر ، كما استطاع أن يتزوج من عبلة ملبياً داعى الحب الذى امتزج بدمه ، وفيًّا لهذا الحب أكرم وفاء ، فهى لذلك قصة حماسية غرامية ، تبدو فيها الإرادة القوية الحاسمة فى أكمل صورها ، وأسمى أطوارها ، وأثبت مواقفها ، فهى فى عنترة لا تلين ولا تهون .

وقد جاءت بطولته فى القصة من النوع النادر الذى يفوق حد التصور ، فهو مارد من المردة تخشاه الجن ، ويشتت الجيوش ، ما بارزه أحد إلا ألقمه

موتاً أو أسراً ، وما كانت شجاعته لتخرجه عن حدود الحكمة والتروى وحزم السياسة إلى التهور والإعنات والمشاقة العمياء ، فهو يقدم ويحجم ويهادن حيث يجب الإقدام وينبغى الإحجام وتحسن المهادنة؛ وما كان يستغنى عن أخيه شيبوب : رأسه المفكر ، ومشيره المدبر ، ورائده الذى يكشف به ما خفى عنه، ومصباحه الذى ينير له سبل الخلاص من ورطاته.

وقد صورته القصة كاملاً فى بطولته ، فهو عزيز النفس ، عف اللسان ، حليم صبور ، يحمى الضعيف ، وينصر المظلوم ، وينتقم من الظالم ، ويصون الحريم ويعف عند المغنم ؛ كما صورت موته تصويراً له روعته وقدسيته وخلود فنه ، فهذا الأسد الرهيص الأعمى يحذق الرمى على مكان الصوت ، حتى إنه ليصيب الطائر فى الجو إذا مر من فوقه وسمع صوته ، يرمى عنترة بسهم مسموم ، وهو يذود عن قومه ويصد الأعداء عنهم حتى خارت منه القوى وبان له شبح الموت ، فركز رمحه واستند عليه وهو راكب جواده ، فخرجت روحه وهو على هذه الحال ، وجواده من تحته ثابت لا يتحرك ولا يميل ، ووقف الأعداء لا يجسرون على الهجوم عليه ، ولا أن يقتربوا منه، ثم يتحرك جواده فيقع عنترة على الأرض جثة هامدة ، وحينئذ يشمل الحزن عليه الأقرب والأبعد ، وتذبح على قبره ألوف النوق والجمال ، وتتوالى الوفود والرسائل من سائر الأقطار للتعزية ، وتنطوى صفحات لحياة مليئة بالمجد والفخار .

١

ذلك شدّاد بن قراد ، فى عشرة فرسان شِداد من بنى عبس ، خرجوا من ديارهم ، يطلبون السلب والنهب ، وساروا فى الصحراء لا يقصدون جهة بعينها ، حتى أشرفوا على هضبتين بينهما خيامٌ مضروبة ومراع مملوءة بالأغنام والإبل والخيل ، وكانت لبنى جديلة ، وهم عربٌ أقوياء .

جلس الفرسانُ العشرة فى مكان بعيد يتشاورون فيما يفعلون .

أيجازفون بحياتهم ويغيرونَ على بيوت بنى جديلة ؟ أمْ يغيرون على أنعامهم وجمالهم ويتخطفونها ثم يفرّون بها قبلَ أن يعلم بنو جديلة وقبل أنْ يتحركوا لاستخلاصها منهم ؟

فاختاروا أن يذهبوا إلى المراعى ، وساقوا أمامهم ما شاءوا من إبل وخيل ، وفروا سراعاً هاربين ، ولكنهم كانوا على استعداد لقتال بنى جديلة إذا لحقوا بهم ليستردوها منهم .

استصرخ غلمان بنى جديلة بهم وأخبروهم ما فعله الفرسان بأموالهم ، فهبوا سراعاً إلى سيوفهم وجدوا فى اللحاق بهم ، وما لبث الفرسان أن رأوا غباراً يتصّاعد فى الجو من خلفهم ، وكلما أمعنوا فى السير اقترب



الغبار منهم ، فأيقنوا أن بنى جديلة خرجوا فى إثرهم ليردوا أموالهم ، ومن أجل ذلك وقفوا يرتقبونهم ليقاتلوهم ويردوهم على أعقابهم خاسرين ، ثم يستأنفوا مسيرهم بما غنموا آمنين .

التقى الجمعان وحمل الفرسان العشرة على بنى جديلة حملة قاسية ، فمزقوهم شر ممزق ، وفرّ من أخطأه الموت منهم هارباً ، بعد قتال عنيف دام يوماً إلا قليلاً ، ثم استأنفوا سيرهم إلى ديارهم ، وكانوا قد أخذوا فيما أخذوا أمَةً سوداء تدعى زبيبة وولديها جريراً وشيبوباً .

ولما جاءوا ديارهم عشاء فرحين قسموا بينهم غنيمتهم فى حضرة مليكهم زهير ، وجعلوا له منها نصيباً ، وجعلوا الأمَةَ وولديها من نصيب الفارس شداد بن قراد ، وكانت قد لقيت منه فى الطريق إكراماً وعطفاً ، فلما وجدت نفسها من نصيب شداد فرحت فرحاً جمًّا وقالتْ فى نفسها : لنْ يضيعَ كريمٌ لدَى كريم .

وأسكنها شداد فى بيت خاص بها ومعها ولداها جرير وشيبوب ، وجعل يحنو عليها ويكثرُ الجلوس معها والتودد إليها ، ولما وضعتْ منه ولداً سماه عنترة ، وجاء أسود اللون أدْغم ، يضرب وجهه إلى السواد أكثر من سائر جسده ، واسع المحجرين ، مبسوط المنكبين ، قوى البنية ، وهو فى جملته أشبه بأبيه شداد فى خلقه وشكله ، وقد لحظت أمه عرامةً فى طفولته ، فكان إذا منعته الرضاع همهم ودمدم ، وجاش صدره بصوت تخاله زئيراً ،

واتقدت عيناه غضباً ونكيراً ، وأكب على قماطه تقطيعاً وتمزيقاً .

ولما قطع من حياته عامين أو يزيدان أخذ يدرج بين الخيام فى عرامة وثورة ، فهذه أوتاد خيمة يقتلعها فتقع على من فيها ، وهذه الكلاب الصغيرة يمسك أذنابها ويطوحُ بها فى الهواء ، سخرية بها واستخفافاً ، وهؤلاء صغارُ الأولاد يعكرُ عليهم صفوَ لعبهم ومرحهم ، فينهر هذا ، ويدفع ذاك ، ويلوّى ذلك على ظهره ، فخلق له بذلك فى النفوس خشية وخوفاً كانا موضع دهشة الناس وعجبهم ، وبشيرَ حياة مقبلة كلها شجاعة لا تحدها غاية .

رأى الفرسان التسعة فى عنترة أمارات النجابة والشجاعة بادية ، فلعب الحقد فى نفوسهم على شداد بن قراد عاشرهم ، وغاظهم أن يكون عنترة عبده من دونهم ، فأجمعوا أمرهم بينهم أن يعيدوا قسمة الغنيمة ، وطمع كل منهم أن يكون هذا العبد الناشئ من نصيبه ، فاجتمعوا بدار شداد وقالوا : لقد كانت زبيبة وولداها جرير وشيبوب مما غنمناه من بنى جديلة ، أما عنترة فقد كانت حاملا به ولم يتناوله اقتسامنا ، فهو لذلك لا يزال ملكاً شائعاً بيننا ، فلنعد إلى قسمة غنيمتنا لنرى لمن منا يكون هذا العبد ، فدهش شداد لما سمع إذ كانت مفاجأة غير منتظرة ، وأصبح بين أمرين لا ثالث لهما ، إما نزولا على رأى الفرسان التسعة وتنازلا عن هذا العبد الذى رزقه من أمَته ، وإن لم يلحقه بنسبه ، وذلك ما لا يرضاه لنفسه ، وإما

رفضاً لما يقولون واستمساكاً بالقسمة النافذة ، وذلك ما استقر عليه رأيه ، وعقد العزم على تنفيذه . وشجر بينهم الخلاف واحتدم النزاع حتى جردت السيوف وكادوا يقتتلون ، فطار أمرهم إلى الملك زهير ودعاهم إليه ليحكم بينهم ، فجاءوه فى مقعد الضيافة من داره ، ومعه ضيوف من بنى غطفان ، وحكوا قصتهم على ملأ من الجالسين معه ، فأمر أن يحضر العبد الذى كان سبباً للنزاع والخصام ، وكان قد أوفى على العام الرابع من عمره ، فخاله هو والحاضرون ابن عشر من سنيه ، لفراهة جسمه وعظم قوته ، فالتفت إليهم قائلا : يا بنى عمى ، وذوى قرابتى ورحمى ، إن أمركم هذا ينبغى أن تحكموا فيه قاضى العرب بشارة الفزارى ، فاذهبوا من فوركم إليه . وضعوا قضيتكم هذه بين يديه ، فعنده فصل الخطاب ، ولا يكن فى صدوركم حرج مما يقضى ، حتى تحقنوا دماءكم ، وينشر السلام ظله عليكم .

ولما جاءوا بشارة فى داره ، وقصوا ما لديهم على مسمعه سألهم قائلاً : هل منكم من أحد اتصل بأم هذا الغلام ؟ فقالوا : أسرناها ، ولم يمسسها إلا شداد بن قراد . وبعد أن صعد نظره فى عنترة وشداد قال : لقد شهدتم على أنفسكم ، وقد رأيت هذا العبد أشبه خلقاً بشداد ، ولهذا فقد حكمت له به وجعلته من نصيبه ، فثوبوا إلى رشدكم ، ولا تجعلوا للظلم سبيلا إلى نفوسكم ، وإلا قامت بينكم حرب وخيمة العاقبة . فرضوا بحكمه وانصرفوا متوادين مؤتلفين .

سأدركه فى لمح البصر أو هو أقرب ، ولكنه جعل يعدو فى سرعة ، وأنا أجرى من خلفه ، فما أصابه تعب يقفه ، ولا أنا أدركته إلا بعد أن أتعبنى وكدت أسقط من الإعياء ، ثم سقته أمامى إلى الرابية ، فما كاد يندس بين الغنم حتّى تفرقت ، فأقبلت عليها أجمعها ففر هذا الخروف ثانية ، فعدوت من خلفه حتّى عدت به إلى الغنم ، فشردت هنا وهناك فجمعتها ففر فأرجعته ، وهكذا استمرت الحال جميع النهار ، إلى أن عدت به وبالغنم إلى الديار ، ثم اغرورقت عينا شيبوب بالدموع ، فقال شداد :

ويل لهذا الخروف الشقّى الشارد، دلنى عليه حتّى أذبحه وأريحك منه.
فالتفت شيبوب إلى الغنم وقال :

هو ذلك الذى يحدق إلىّ ببصره ، فلا رعاه الله ولا أكرمه ؛ فأمسكه شداد فإذا به ثعلب ، فابتسم وذبحه والتفت إلى زبيبة قائلاً : إن أولادك شياطين لا يبالون أن يتعرضوا للمخاطر ، فلا تكليهم إلى أنفسهم ، واصحبيهم فى رعى الغنم ولا تفارقيهم ، واحرصى على عنترة حرصاً شديداً فسيكون له شأن خطير ، ومستقبل مملوء بعظائم الأمور ؛ فقالت : لك الأمر وعلىّ الطاعة .

* * *

ولما أصبحت زبيبة خرجت هى وأولادها إلى البرية ، وأمامهم الأغنام

تمشى بأمرهم حيث يشاءون، والأم حريصة على تنفيذ ما أوصاها به مولاها، غير أن عنترة لا يزال راكباً رأسه ، ولا يطيع إلا نفسه ، فكان يفارق بأغنامه أمه وأخويه ، ويمشى بها فى البيداء إلى حيث يشاء ، وهناك يمتطى جواده ويعدو به هنا وهناك ، كأنه فى ساحة القتال ، ليروض نفسه على الكر والفر والطعن والضرب فى ميادين الحرب ، وكثيراً ما نصحت له أمه بالبقاء معها وملازمتها فيأبى عليها ذلك كل الإباء ، ولم تجد أمه مفراً من إخفاء أمره هذا عن أبيه ، خشية أن يعتقله فيكبت مواهبه .

٢

وذات يوم أخذ عنترة عباءة أخيه شيبوب وعلقها فى غصن شجرة ، وركب فرسه وجعل يطوف من حولها ويرميها بسهامه ، كأنه يحارب فارساً ، حتّى جعل فيها ثقوباً عدة ، وكذلك فعل بعباءته وعباءة أخيه جرير ، ولما استراح العبيد فى الظهيرة ، وغرقوا فى نوم عميق ، كان شيبوب من بينهم ومعه العباءات الثلاث المثقبة ، إلا أنه تناوم ولم ينم ، حتّى استيقن من نومهم ولم يخش يقظة أحد منهم ، فاستبدل بالعباءات المثقبة عباءات سليمة غير مثقوبة من عباءات العبيد ، وذلك خشية أن تقع عين مولاه شداد على عباءاتهم المثقبة فيوجعهم ضرباً وإيلاماً .

وهبَّ العبيد الرعاة من نومهم ، فوجدوا من بين عباءاتهم ثلاثاً مثقوبة فجعلوا يتساءلون :

من فعل هذا بعباءاتنا ؟ إنه لمن الظالمين .

وأخذ كل منهم يتهم الآخر ، وينسب إليه تلك الفعلة الظالمة قائلاً :

أنت الذى فعلت هذا بالعباءة فهى لك ، فيجيبه : لم يفعل هذا أحد غيرك فهى لك : وساد اللغط والضجيج ، وتحركت الأيدى باللكم والضرب وكثر الدفع والجذب ، وفى النهاية سالت دموع الضعفاء الذين أرغموا على أخذ العباءات المثقوبة بدلا من عباءاتهم السليمة .

واستمر عنترة يثقب العباءات وشيبوب يستبدل بها غيرها على نحو ما فعل فى المرة الأولى ، والفتنة تقوم بين العبيد على أشدها أياماً ، وهم لا يهتدون إلى من يفعل بهم هذا .

وذات مرة ذهب شيبوب إلى مراقد العبيد ليستبدل بالعباءات المثقبة عباءات سليمة ، وكان متعباً ، فأخذه نوم ثقيل جعل يغط فيه حتى صحا العبيد واستيقظوا وهو لا يزال غارقاً فى نومه ، ثم انتبه واستيقظ فلم يجد أحداً نائماً ، فندم وحمل عباءاته الممزقة وهو فى حيرة وخوف .

وكان شيبوب وإخوته قد تأخروا ولم يرجعوا إلى الديار فى الموعد الذى يرجعون فيه كل يوم ، فظن مولاهم شداد أن مكروهاً أصابهم فأخر عودتهم وخرج إلى الصحراء يطلبهم ، فلمحه شيبوب قبل أن يصلوا إليه فقال لأخويه :

ذلك مولانا مقبل علينا ، فماذا أنتم قائلون إذا سئلنا عن العباءات وما أصابها ؟ فقال عنترة :

دبر لنا حيلة ننجو بها ، فقال شيبوب :

تجدُّون أنتم فى سوق الغنم وتسبقون ، أما أنا فسألتقى به ، وعسى أن تخدعه حيلتى ويصرفه عن إيذائنا ما ألقيه إليه من المعاذير .

ولما التقى شيبوب ومولاه أخذ يبكى ويضع التراب على رأسه ، ففزع مولاه وابتدره قائلاً :

ماذا جرى يا شيبوب ؟ هل أغار عليكم أحد أو أزعجكم وحش فأخر عودتكم ؟ فقال شيبوب :

ليت ذلك قد كان ! لقد دهمنا جراد كثير حجب عنا ضوء الشمس فرددناه بعباءاتنا فمزقها وصيرها إلى ما ترى — وأراه إياها — ولو لم نفعل ذلك لشرد الغنم وتاهت منا فى البيداء ، وهذا سبب تأخرنا عن موعدنا ! فقال شداد :

إنك لمحتال كذاب ، ومتى رأينا أو سمعنا جراداً يفعل بالثياب ما فعل بعباءاتكم ؟ ! فقال شيبوب :

ما قلت إلا حقاً ، ولقد كان من الجراد ما هو فى حجم العصفور ، ولهذا لم يكن من المستنكر أن يفعل بالعباءات ما فعل ؛ فانخدع شداد وقال :

لا تبعدوا فى الصحراء مرة أخرى حتّى لا تكونوا معرضين لمثل ذلك .

وما زال عنترة يروض نفسه على أعمال البطولة ، ولا تزال قوته تنمو وتعظم ، ولا تزال شجاعته تنتشر بين الأحياء ، حتّى هابه الناس وامتلأت قلوبهم منه رهباً ورعباً ، وستقرأ فيما يلى قصصاً من حياته ، تلمس فيها ألوان البطولة والوفاء والمروءة .

٣

كان شاس أكبر أولاد الملك زهير ، وولى الأمر من بعده ، وله عبيد يقومون على شئون ماله ويرعون خيله وإبله وغنمه ، ومن بينهم عبد يسمى « داجياً » وكان قويًّا جريئاً ، يحسن القيام على مال سيده ، فهو من أجل ذلك يحبه ويطيع مشورته ، وهو من أجل ذلك مهيب الجناب ، مستكبر فى الأرض ، لا ينغص عليه حياة كبره إلا شخصيةٌ طماحة قوية ، ولم تكن تلك الشخصية إلا عنترة بن شداد ، من أجل ذلك كان عنترة مثار ألم لداج وموضع قلق له ، يتمنى له الموت حتّى يستريح منه ، وأنّى له ذلك وهو لا يقدر عليه !

ورَد رعاة القبيلة الغدير عند الغروب ، ليسقوا دوابهم قبل أن يرجعوا بها إلى الاحياء ، فمنعهم داج أن يقربوا منه حتّى يسقى أنعامه ، مع أن الغدير

واسع لا يضيق بالواردين جميعهم وإن كثر عديدُهم وعظم جمعهم ، فصدع الرعاة بأمره ، ونزلوا على حكمه ، وإن كانوا فى غيظ من ذلك ، وألم من تلك المعاملة الظالمة ، فهم دائماً يمتنعون عن الغدير فى مضض وذلة حتّى يأذن لهم بعد أن يكون قد سقّى دوابه وتركه إلى سبيله .

وذات يوم تقدمت إلى داج عجوز شمطاء ، تصطك منابت أسنانها عند حديثها ، ويلتوى لسانها فى فمها من شدة ضعفها ، وقالت له فى تضرع ومسكنة :

ألا ترحم كبرى وضعفى وقلة حيلتى وتسقّى لى غنمى ؟ ! ! فإنى أقتات من لبنها ، وأرضع أولادها ، وأخشى أن ينال العطش منها فلا تجود بما يكفينى ويكفى الرضّع من صغارها ! !

فلم يلتفت إليها وكأنه لم يستمع لأحد ، وألحفت فى السؤال مرة ومرة ، فما أعارها أذناً سامعة ، فرجعت إلى مكانها مكتئبة كسيفة البال ، تنحدر دموعها على ثيابها .

وتقدمت إليه عجوز أخرى ينم مظهرها عن نعمة سلفت وعزة خلت فقالت :

إنى امرأة — كما ترى — ضعيفة ، وقد جار علىّ الزمان ، فعدمت المال وفقدت الولد والرجال ، وانجلت شدة الزمان عن هذه الغنيمات التى منها



أقتات ، فارحم وحدتى ، وجُدْ علىّ بسقيها ، حتى أستطيع الرواح فى ضوء النهار بها .

فدفعها بيده دفعة ألقتها على ظهرها ، وانكشف ما كان مستوراً من جسمها ، على ملأ من العبيد والواردين .

كان ذلك كله على مشهد من عنترة ، فثارت فى صدره النخوة العربية ، ودنا منه وصرخ فى وجهه ، وأنذره هلاكاً عاجلا إن لم ينزل عن ظلمه ، فاستخف الغضب داجياً ولطمه على وجهه لطمة شديدة ، فأمسك عنترة إحدى رجليه ، وجذبه جذبة قاسية إليه ، وقبض بيده الأخرى على عنقه ، ورفعه إلى السماء ثم ضرب به الأرض ضربة قضت عليه .

أحاط بعنترة عبيد شاس بن زهير وأرادوا به الشر والأذى ، ولكنه لم يبال بجمعهم ، واختطف عصا من أحدهم ، وأخذ يقاتلهم بها ، غير هياب ولا مبال بما يصيبه من جراح أو خدوش .

٤

كان مالك أحبَّ أبناء زهير إليه ، لما عرف به من حماية الضعيف واحترام المرأة وعظيم المروءة ، وقد خرج هذا اليوم فى عبيده للصيد والقنص ، ولما دنا من هذا الغدير سمع صياحاً وجلبة ، فتوجه إليه ليتبين أمر هذه الجلبة ، فإذا عنترة جاد فى التنكيل بعبيد شاس أخيه ، وتمزيق جمعهم ، فسأل عن ذلك الفارس ، فقيل عنترة عبد شداد بن قراد ، وقصوا عليه قصته ، فصاح فى عبيد أخيه صيحة استنكار لما يفعلون من تجمعهم على عنترة وقتالهم إياه ، فقالوا :

لقد قتل هذا العبد « داجياً » عبد أخيك شاس ، فقال :

أحق ما تقولون ؟ فقالوا :

نعم ، إنه لحق ، وها هو ذا ملقى على الأرض

فعجب مالك من أمر عنترة وكيف صرع عبد أخيه المعروف بالشجاعة والقوة ، ثم نظر إلى عنترة نظرة فهم عنترة معناها وأنه يسأله بها عما حصل ، فقص عليه قصته فى طلاقة لسان ، وثبات جنان ، فأحبه لشجاعته ، وشرف دفاعه ، وعظيم مروءته ، وأعلن أنه حاميه ومجيره ، ورجع به مالك إلى دياره .

ولما دنا مالك من الخيام وجد أخاه شاساً راكباً فرسه ، متقلداً سيفه ،

متهيئاً للخروج والغضب بادٍ على وجهه ، فقال مالك :

أخى الكريم ، مالى أراك ثائراً غاضباً ؟ فقال :

ومالى لا أغضب وقد طمع فينا العبيد أبناء الإماء ؟!! لقد قتل عبد شداد عبدى داجياً ، ولن أرجع حتى أترك لحمه طعاماً للوحش والطير ، فقال مالك :

لقد أجرت عنترة وأعلنت حمايتى له .

فلم يحفل شاس بتلك الحماية ، ونظر فوجد عنترة فى عبيد أخيه ، فأقبل عليه يريد قتله ، فتصدى أخوه له ، وجرد كل منهما سيفه ، ولكنهما فوجئا بإقبال والدهما زهير ، وكان قد خرج فى حاشيته ، لشأن من شئونه ، وما لبثا أن كانا بين يديه ، فشكا مالك ما كان من شاس أخيه ، وموقفه منه موقف الخصومة ، انتصاراً لإثم ، ودفاعاً عن نقيصة وظلم ، وثأراً لعبد أثيم ، لا يحترم حقاً ولا يرعى مروءة، وقص عليه قصة داج وعنترة ، فالتفت زهير إلى ابنه شاس قائلاً :

هبْ عنترة لأخيك مالك ، ولك منى عشرة عبيد فيه ، واحسم النزاع ولا تعقّ ما بينكما من أخوة ، فأخوك يدك التى تبطش بها ، وعينك التى تبصر بها ، وسيفك الذى تنتصر به على الأعداء .

فاستحيا شاس من موقفه ، وكظم غيظه ، ودفن بغضه لعنترة فى صدره ، ورضى بما قضى به والده ، ثم أمر زهير أن يُدْنى منه عنترة ،

فأخذ يسأله عما دفعه إلى قتل عبد ابنه ، فقص عليه القصة فى بيان ساحر وجرأة نادرة ، فابتسم الملك ابتسامة تنم عما أكنه فى نفسه لعنترة من محبة وعظيم تقدير ، ثم التفت إلى شداد — وكان فى حاشيته — وقال :

لقد أنجبتَ وأثمرت ، وهنيئاً لك هذا الذى لا تزال تدعوه عبدك ، فأكرمْ عشرته ، وأحسنْ صحبته ، وعسى أن تحتاج إليه فى الشدة ، وكشف الغمة ؛ ثم انصرف كل إلى شأنه .

رجع شداد بعنترة إلى داره ، وكان قد سبقه إلى القبائل والأحياء خبره ، وما فعله بداج عبد شاس عند الغدير ، فارتقبت نساء بنى قراد وبناتهم قدومه ، وما كاد يصل حتى اجتمعن به يسألنه عن حادثته ، ويصغين إلى حديثه ، وكان من بينهن عبلة بنت عمه مالك بن قراد ، تتألق فى جمالها تألق البدر ، وكانت أكثر النساء والبنات إعجاباً به وثناء عليه وافتخاراً بمواهبه ، وكانت طول الجلسة تنظر إليه وهو ينظر إليها ، ثم انصرفن عنه حامدات شاكرات ، ولكن واحدة منهن ملكت عليه قلبه ، تلك هى عبلة بنت عمه .

٥

كان من عادة نساء العرب أن يشربن اللبن فى الصباح والمساء ، فيحلب العبيد النوق والنعاج ويقدمون اللبن إليهن فى البُكرة والعشىّ ، وكان عنترة يسقى زوجات أبيه وعميه مالك وزخمة الجواد . وبنت عمه عبلة ، فسقى عبلة اللبن قبل سمية زوجة أبيه ، فرأت فى ذلك مساساً بكرامتها ، وامتهاناً لها وحطاً من قدرها .

فلما حضر شداد زوجها أظهرت من الكآبة والحزن ما جعله يسأل عن شأنها وما أحزنها ، فقالت :

وما لى لا أحزن وقد ديست كرامتى وانحطت فى بيتك منزلتى ، فقد تحكم عنترة فى أقدارنا ، وأنزلنا المنازل التى يراها هو ، لا التى يراها الواجب ويقرها عرف العرب ، فهو يقدم على زوجتك أنت ابنة عمه عبلة فى شرب اللبن متعمداً ، وآية تعمده هذا دأبه على عمله هذا أياماً متواليات وما رقب فيك أبوة ، ولا فى زوجتك أمومة ، ولا فينا معاً ولاء ولا سيادة .

وما كادت تنتهى من شكايتها حتى دخل عليه ضامر عبد الربيع ابن زياد بوشاية أثيمة ظالمة ، ليفسد بين شداد وعنترة ، حسداً له ونكاية فيه فقال :

يا مولاى ! إن عبدك عنترة يبعد بخيلك فى الصحراء ويرهقها فى الكر

والفر ولا يمكنها من رعى الكلأ وشرب الماء ، حتّى هزلت ، ولك أن تنظرها عند مجيئها لتعرف : أصدقتُ أم كنتُ من الكاذبين .

قال العبد قولته ثم انصرف ، فانتهزت سمية هذه الفرصة وقالت :

إن عنترة ركب رأسه وجاوز حدّه ، وإن لم تبادر إلى زجره وتأديبه ، لقيت منه كل غم وشقوة .

عملان خطيران ؛ أما أحدهما ففى زوجة شداد ، وهى أمس الأشياء بشرفه ، وأما الآخر ففى ماله وهو عماد حياته ومعيشته ، عملان خطيران يغزوان قلب شداد معاً ، وطبيعىٌّ أن يحركا فى نفسه ساكن الغضب ، ولما حضر عنترة ضربه أبوه وأوجعه ، على مرأى من أمه زبيبة التى لم تنطق بكلمة ، وإن كانت متألمة ، لأنها لا تعرف للضرب سبباً ، وتلقّى عنترةُ ضرب أبيه له صابراً متألماً ، لأنه لم يكن عنده نتيجة لخطيئة فعلها .

ولما عرفت أمه السبب من الإماء أخبرت ابنها عنترة ما كان من ضامر عبد الربيع ومن سمية زوجة أبيه ، فقال عنترة :

سأريح العباد من هذا العبد الواشى الأثيم .

وما لاح ضوء الصباح ، حتّى كان عنترة بين البطاح ، باحثاً عن ضامر عبد الربيع ، فلما عثر به أمسك بيده اليمنى ثنايا بطنه ، وقبض بيده اليسرى على عنقه ، ثم رفعه ودكّ به الأرض دكة واحدة كانت هى القاضية .

وظن عنترة أن الربيع بن زياد ورجاله سيطلبونه ليثأروا منه ، فذهب إلى مالك بن زهير وأنبأه ما فعله بضامر ، فابتسم مالك وقال :

لا خوف عليك ، ثم تركه فى منزله ، وذهب إلى الربيع فى داره ، فوجده فى وليمة عند أبيه زهير ، فسره أن وجده فى بيت أبيه ، وذهب توّاً إليه ، فوجد الربيع وسادات بنى عبس وبنى زياد جالسين فى حضرة والده ، فحياهم وقاموا جميعاً له تحية واحتراماً ، وتباطأ فى الجلوس فقال الربيع :

اجلس يا مالكُ حتّى يجلس القوم فقد طال وقوفهم ولا ينبغى أن يجلس أحدهم حتّى تجلس ، فقال مالك :

اتحب أن أجلس معكم فرحاً رضى النفس ؟ فقال :

إى وحياة من هنا من سادات العرب ، فقال مالك :

وان أجلس حتّى تهب لى عبدك ضامراً ، فقال الربيع :

اجلس فقد وهبته لك ، وإن شئت وهبت لك عبدين معه ، فقال مالك :

وإنى أشهد عليك السادة الحاضرين ، فقال :

نعم ، ورافع السموات العلا ، إنه لك دون منّ ولا أذى ، فقال مالك :

قبلت العطية ، وانكشفت البلية ، وأظلنا السلام بظله ؛ وجلس فجلس القوم معه ، فقال الربيع :

وما فى هبة العبد من هذا الذى تقول ؟ فقال :

إن عبدك ضامراً قتله اليوم عنترة ، وقد استجار بى فأجرته .

فأطرق الربيع كاظماً غيظه ، فقال الملك زهير :

ولأى شىء فعل عنترة فَعْلته ؟

فحكى مالك ما كان من ضامر لشداد بن قراد من وشايته بعنترة ، فابتسم الملك وهدأ الربيع وشرح صدره ، ووهب له عبدين من عبيده ، ثم رجع مالك إلى عنترة ، وقص عليه ما دار من الحديث فى شأنه ، فشكر له حسن صنيعه .

٦

اغتم شداد بن قراد بما فعله عنترة بعبد الربيع بن زياد ، وكان حاضراً فى وليمة الملك زهير ، ولما رجع إلى بيته أحضر إليه أخويه مالكاً وزخمة الجواد وقال :

يا بنى أبوىّ ، لقد ضاق صدرى ، ونفدَ صبرى بما فعله عنترة ، وأخشى أن يقع فى خطأ جسيم ، فيقتل أميراً أو يؤذى كبيراً ، فيضرم بين العرب ناراً ، يكون بنو عبس وقودها ، وربما قضى عليهم سعيرها ، وإن لم نعجل بهلاكه فلا نزال فى خطر من أعماله وأخطائه ، والرأى عندى أن نقتله خفية ، حيث يكون فى المرعى بإبله وخيله ، وحينئذ لا يدرى

مالك بن زهير ما فعلناه به ، ولا ينسب إلينا أحد أمر موته ، وسنكون أمام الناس من الجزعين لفقده ، فقال مالك :

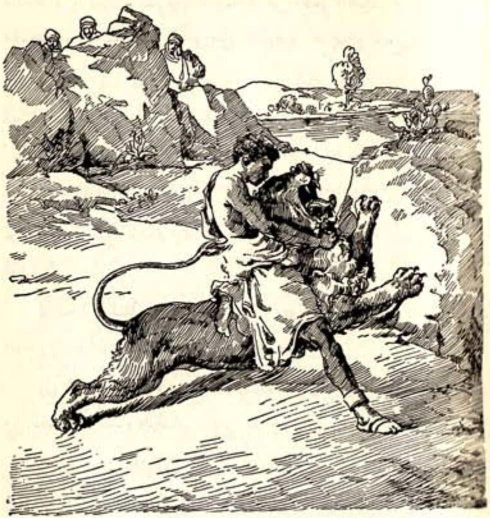
نِعْم الرأى ! فلنعجل به من الغد .

وفى الصباح خرج عنترة بإبله وخيله ، وخرج أبوه وعمّاه على أثره ، وكان قد عزم هذا اليوم أن يبعد فى سيره إلى حيث يجد منجعاً بعيداً لم تطأه قدم راع من الرعاة ، ليخلو له الجو ، فيناجى بشعره عبلة ، وكان قد رآها فى منامه ليلة نهاره هذا ، تأنس به وتتحدث إليه ، فسار ثم سار ، ومن ورائه أبوه وعماه وهو لا يعلم، حتى كان بوادى السباع ، المعروف بوحشته بين البقاع ، وهناك سرح الإبل والخيل ترعى فى جنباته ، وجلس هو على ربوة عالية ، يناجى خيال عبلة .

وبينما هو فى طرب من خلوته إذ بسبع فى حجم الثور أو هو أكبر قد خرج من بطن الوادى :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه ... فكأنه آسٍ يجس عليلا

فلما شمت الإبل والخيل رائحته نفرت وتفرقت ذات اليمين وذات الشمال ، فتقلد عنترة سيفه ، وانحدر إلى بطن الوادى ليتبين سبب نفورها وتفرقها ، فوجد ذلك السبع قد ربض باسطاً يديه ، وهو يضرب بذنبه جنبيه ، ولما رأى عنترة قادماً نحوه ، كشر عن أنيابه ، وكأنه يبتسم للقائه ، وكان آباؤه قد وصلوا فقالوا : لنجلس وراء هذه الأكمة ، وسيقتل هذا السبع



عنترة ، ويكفينا ما خرجنا من أجله ، ولكن عنترة ما أسرع أن ألقى سلاحه وقفز قفزة سريعة ، وفى أقرب من لمح البصر كان محاذياً كتفى الأسد ممسكاً فى التو فكيه بيديه ، وباعد بينهما حتى فصلهما إلى منكبيه ، وهو يقول :

لن أقتلك بحسامى ، ولكن أسقيك شراب الردى ببنانى ، ثم أوقد ناراً وجعل يشوى من لحمه ، وطعم منه ما أشبعه ، ثم جمع إبله وخيله ، ورقد تحت شجرة متوسداً رأس الأسد الذى قتله ، وكان كل أولئك على مشهد من أبيه وعميه المختفين وراء الربوة وهم فى دهشة لا تحدها غاية .

ولما وقع الأمر على غير ما كانوا يظنون ، وفعل عنترة بالأسد ما لم يكونوا يرتقبون ، قال مالك :

نهجم عليه الساعة فى رقدته ، فنضربه ضربة رجل واحد تميته وتهلكه ، فقال زخمة الجواد :

لن يفرط فى هذا العبد إلا رجل مجنون أو جاهل أحمق ، وربما هجمنا عليه فابتدرنا وقتلنا ، ولعله لم يشبع فيشوى لحمنا ويأكلنا ، كما أكل السبع من قبلنا .

وقال شداد : خير لنا أن نبقى على أنفسنا ونعود إلى ديارنا ، وهذا السبع الذى كنا نخافه على دوابنا قد قتله عنترة على هذه الصورة التى تدل على شجاعة نادرة وجرأة لا مثيل لها ، وأصبح هذا الوادى مرعى آمناً ، لا خوف منه على بهائمنا ورعاتنا ، ثم رجعوا خفية ، وهم معجبون

بعنترة ، وتلقاه شداد بعد عودته ، وهو فرح به ، فأجلسه بجواره على مائدته ، يأكلون ويشربون ، والعبيد من حولهم واقفون ، ثم أوى كل إلى مضجعه ، وهكذا ضاع التآمر على عنترة ، كما ضاع السبع فى يده .

٧

أصدر الملك زهير أمره فى قومه أن ينفروا للإغارة على بنى تميم فى ديارهم ، فأوصى شداد ابنه عنترة أن يخلفه فى الأحياء لحمايتها ، فقال عنترة :

لا تخش شيئاً ، وإذا فقد عقال بعير فروحى فداء له ، فاطمأن لقوله ووعده أن يهب له فرساً وجبة عقب حضوره .

وفى غُدوة النهار غادر زهير وفرسانه ديارهم ، ولم يبق فيها إلا المخلفون من الضعفاء والنساء والولدان ، ومن يقوم بخدمتهم من العُبدان .

وفى يوم من تلك الأيام التى كان القوم فيها مع ملكهم زهير يغزون بنى تميم ، أقامت سمية زوج شداد وليمة حافلة على غدير ذات الأرصاد ، ودعت إليها نساء الحى ليقضين يوماً مرحاً ، فى ضيافتها وضيافة الطبيعة السمحة ، افتخاراً بشجاعة الرجال ، وتفاؤلاً بما يرجون من نصر لهم على خصومهم ، الذين خرجوا هم لغزوهم ، وكان الوقت وقت الربيع رق فيه

النسيم وعطرت الأزهار أرجاء المكان ، وكانت عبلة تغنى وترقص ، وعنترة فى سكرة من حب وغرام .

وعلى غفلة من لهوهن ، انقض مائة فارس من بنى قحطان عليهن ، كانوا قد خرجوا للإغارة والكسب ، فأسروا من أسروا منهن ، وأردفوهن خلفهن ، وهموا بهن إلى ديارهم راجعين ، وكان عنترة أعزل ، لا يجد سلاحاً يدفع به الفرسان المغيرين ، وما كاد يلمح عبلة خلف فارس على ظهر جواده ، حتى أسلم ساقيه إلى الريح ولحق به ، فأمسكه ودق الأرض بعنقه ورأسه فقضى عليه ، ثم أخذ سَلَبه ، وتقلد عدة حربه ، وامتطى جواده مخلفاً عبلة ، وجرى خلف الفرسان المدبرين ، فأعمل فيهم سيفه ورمحه حتى قتل منهم عشرين فارساً ، ثم أطاح برأس قائدهم وأمات معه عشرين آخرين ، وألقى الرعب فى قلوب الباقين ، فعولوا على النجاة بأنفسهم هاربين ، ولاذوا بالفرار غير ظافرين ، وانجلت المعركة عن نصر مبين لعنترة ، وسلامة للنساء شاملة ، وغنم عظيم من الخيل والأسلحة ، فأحبته النساء حباً جماً ، وأعجبن به إعجاباً عظيماً ، وتبدل بغض سمية له محبة ، وأصبحت له أشفق من الوالدة ، ثم رجعن متفقات على أن يكتمن أمر هذه الوليمة عن بعولتهن ورجالهن .

رجع زهير فى كتائبه غانمين ظافرين ، وتفقد شداد غداة قدومه وعودته ، خيله وإبله فوجد من بينها أربعين جواداً ، فسأل عنترة عن هذه

الخيل التى امتلأ بها المرعى ، فقال :

هذه يا مولاى خيل تخلفت عن أصحابها ، فرأت خيولنا وإبلنا فانحازت إليها ، وأقامت بينها ؛ فقال شداد :

ما قلت حقاً ، ما هذه إلا خيل أخذت من تحت فرسانها ، وما أنت براجع عن قتل السابلة وسلب أموالهم حتى توقد نار حرب بين القبائل لا تُبقى منهم باقية ، فلا تبرحْ لنا مُقاماً ، فإنا لا نريدك ترعى لنا إبلا ولا غنماً ، وضربه ضرباً فزعت له سمية زوجُه ، فخفّت إليه شافعة باكية ، فدفعها شداد بيده ساخطاً غاضباً ، فعادت إليه مُصرة على شفاعتها ، وإن وكزها وكزة قضت عليها ، فقال شداد :

عجبت الآن من عطفك على عنترة ، بعد بغضك إياه وكراهيته !! فقالت :

أعفه من الأذى ، وأنا أقصُّ عليك ما جرى . ثم حكت له ما فعله ببنى قحطان يوم غدير ذات الأرصاد ، فذهبَ عنه الغضب وقال :

إن أمر هذا العبد عجيب ، وأعجب منه إخفاؤه هذا الحادث عنى ، وصبره على ضربى له وغضبى ؛ ثم رضى عنه ، وفرح به ، فاطمأن عنترة وفرح برضا أبيه عنه .

٨

دعا زهير شداداً وإخوته إلى وليمة النصر على بنى تميم فى دار ضيافته ، وكانت فُسطاطاً من خالص الوبر ، بُطن بستائر الحرير المنمقة ، وفرشت أرضه ببسط ثمينة ، عليها نمارق مصفوفة ، والعبيد حافون من حوله ، ووافقون أمامه ، فلبّوا دعوته ، وصحبهم إليها عنترة ، ولما اطمأن بالقوم المكان ، وانتهوا من الشراب والطعام ، أخذوا يتبادلون الحديث ، من تليد وطريف ، فما سمع الملك أعظم وأشهى من حوادث عنترة ، ولم يكن أحد من الجالسين أقل من الملك إعجاباً به ، واعترافاً بفضله ، فقال زهير : لقد علمتُ من يوم أن قتل عنترة عبد ابنى شاس ، دفاعاً عن إنسانية مقهورة ، وكبتاً لوحشية طاغية ، وتحقيقاً لمساواة عادلة ، أن سيكون له شأن عظيم بين الناس ، فحق علينا أن نقدره قدره ، وننزله المنزلة اللائقة بكريم أفعاله ، فالأعمال الطيبة حسب من لا حسب له ، وأعظم الناس أنفعهم للناس . ثم دعا عنترة فأقبل وحياه ، وأمره أن يجلس معهم ، ويقاسمهم حديثهم وسمرهم ، وأعجب الملك بحديثه ومنحه حلة وعمامة من جنس ما يلبسه علية القوم وساداتهم ، وانفرط عقد المجلس فى المساء ، فرجع فى صحبة أبيه وهو منشرح الصدر مطمئن النفس

٩

وفى الصباح ركب عنترة جواده إلى المرعى، وأخواه يسوقان الأنعام بين يديه، وهو لا يرضى إلا المنتجع البعيد الذى يسكن إليه، وكان قد سبقه أبناء الملك زهير إلى منتجع فى سبيله، إذ دعاهم إليه عمهم أسيد بن جذيمة فى وليمة أقامها لهم على ربوته، يأكلون ويشربون، ويمرحون ويرتعون، وكانوا عشرة إخوة، نزلوا على ربوة عالية ممتدة الجنبات، مكسوة بالنبات، ومن حولها عيون نابعة، وغدران صافية، فطعموا وشربوا، وحانت من مالك بن زهير التفاتة، فلمح عنترة وأخويه يوردون دوابهم، فأرسل فى طلبه ليجلس معهم، ولكن شاساً اشمأز قائلا: أيها الأخ العزيز، ما هذا الذى أمرت به؟! لقد أفرطتم فى تقدير هذا العبد وتكريمه، ورفعتموه إلى منازل السادة، وهذا أبى أجلسه بالأمس إلى جواره، كأنه سيد حى أو رئيس قبيلة، ولقد رأيته الآن قبل أن تراه، فهممت أن أقتله، لما فى نفسى له من الحقد والموجدة، إذ قتل عبدى داجياً قتلة لا يزال ألمها فى صدرى، ولكنى آثرت أن أتركه حتى لا أعكر به صفو اجتماعنا، فإن أحضرته الآن فإنى قاتله.

وما كاد شاس ينتهى من قوله حتى صرفهم عن الحديث فى عنترة، غبرة فى الأفق تخطو إليهم مسرعة، ثم انكشفت عن ثلاثمائة فارس على

خيلهم، وقد جردوا سيوفاً ترسل وميضها إلى الأبصار، وتقلدوا رماحاً تحمل الموت فى النصال، وكانت هذه الخيل لبنى قحطان، عضهم الزمان بنابه فتفرقوا سرايا فى الأرض، يبتغون الغنائم والمرزق، ومنهم تلك الفئة التى مزقها عنترة يوم غدير الأرصاد، فى وليمة سمية زوج أبيه شداد.

عرف أبناء زهير أن هؤلاء الفرسان يقصدونهم فنزلوا إلى الوادى واعتصموا بخيلهم وأسلحتهم، واستعدوا للدفاع عن أنفسهم، وهم يتوقعون شرًا وبيلا لقلتهم وكثرة المغيرين عليهم، والكثرة — كما قيل — تغلب الشجاعة.

أما عنترة فقد كبر عنده أن تصاب بمكروه جماعة هى الآن فى جواره وكأنها فى حماه، ورأى العدوان عليها عدواناً عليه وهو لا يرضاه، وزاد فى حماسته وغيرته أن رأى فيهم مالك بن زهير الذى أحبه، وأجاره وآمنه، فانقض عليهم انقضاض الصاعقة، وصرع عميدهم، وفرش الأرض بجثث كثير منهم، ففزعوا، ولم يجد الباقون منهم معصماً يعصمهم إلا الفرار، وانفرجت عن أبناء زهير تلك الشدة، وإن ألسنتهم لتلهج بحمد عنترة وشكره.

وكان قد خف بعض العبيد إلى زهير يستصرخونه، فأسرع إلى أبنائه فى قوة من رجاله، فوجد عنترة قد قهر الأعداء، وحمى الأبناء، فانشرح صدره، ورجعوا جميعهم إلى ديارهم فرحين. وهناك أقام زهير فى بيته وليمة لأبنائه، وأهله وأقربائه، فأجلس عنترة بجواره، وسقاه من خاص شرابه،

ومنحه جواداً وسيفاً وحلة فاخرة ، ورفعه مكانة عالية ، وسماه « حامية عبس » وقال لأبيه شداد : لا يرعى عنترة بعد اليوم إبلا ولا غنما ، ولكن يكون مع الغزاة والأبطال ، يعصم الأحياء ، ونقهر به الأعداء .

ولم يتركه الدهر من غير حاسد وشانئ ، فكانت نار الحقد تتلظى فى صدور ثلاثة ، كل منهم له ثأر يطلبه ؛ شاس بن زهير ، والربيع بن زياد لقتله عبديهما ، وعمارة بن زياد أخو الربيع ، إذ كان ينافسه فى محبة عبلة ، وكان عنترة كلما ارتفع قدره، ازداد شغفه بعبلة ، فأنشد فيها شعراً ردده كل لسان ، حتّى غزا حبه إياها وشعره فيها ، بيت أمها وأبيها .

١٠

استفاض الحديث فى دار عبلة عن ذلك الشيء الذى بينها وبين عنترة ، والذى سارت بذكره الركبان وتغنت به الحداة والرعيان ، فأرسلت إليه أمها وقالت له :

لقد سمعت أنك تحب ابنتى ، وجرى ذلك على لسانك ، غير كاتم منه شيئاً فى صدرك ، وكانت عبلة حاضرة ، فابتسمت من قول أمها فرحة، وبدت على ثغر عنترة ابتسامة ، وقال :

وهل رأيت كريماً يبغض مولاته ؟ ! إنى أحبها حبًّا سرى فى دمى ، ونطق به لسانى ، فقالت أمها :

يا عنترة ، سمعنا عن فعالك المجيدة التى فقت بها ذوى الحسب والنسب ، وسأشير على بعلى مالك أن يزوجك خميسة أمة ابنتى عبلة ، فقال :

ومن سمك السماء فسواها ، وبسط الأرض ودحاها ، لا أتزوج إلا من يريدها قلبى ، فقالت عبلة :

بلغك الله أمنيتك ، ورزقك بمن تحبها وتحبك ، فقال عنترة :

لا فُضّ فوك ، ولا حرمت الرشد والتوفيق؛ ثم ذهب كل إلى شأنه .

* * *

لحظت أم عبلة أن لسان عبلة لا يفتأ يتحرك بذكر عنترة ، فى الفراغ والعمل ، وفى مجالس اللهو والغناء ، على مسمع من نساء الحى ولداتها ، فجلست إلى عبلة قائلة :

أنا أمك الحنون ، والأم سر بنتها ، فلا عليك أن تفضى إلىّ بدخيلة نفسك ، وتطلعينى على سرك ؛ فقالت عبلة :

ذلك حق يا أماه ولن أكتم عنك شيئاً ، فقالت :

لقد ملأ عنترة سمع الدنيا بشعره فيك ، وأصبح اسمك شغل الناس من باد وحاضر ، وأراك ترددين شعره ، حتّى ملأت به الأحياء والأخبية ، وأصبحت من أجل ذلك أحدوثة الأندية ، وقال الناس : إن عبلة شغفت بعنترة، وملك عليها نفسها وحسها ، وسمعها وبصرها ، ويدها ولسانها ،

ولا أرى عليك غضاضة ونكراً ؛ فقالت عبلة :

وأية غضاضة فى هذا يا أماه ؟ فقالت :

ألم تعلمى وقع هذه الحال على أبيك وأخيك ؟ فقالت :

أعلم ذلك ، وأعلم أنهم يجرون وراء الثراء ، فقالت :

أى ثراء يا بنيتى ؟ فقالت :

ثراء عمارة بن زياد بما له من خيل وإبل وعبيد وإماء ، وحسبوا أن الرجولة فى المال وكثرته ، لا فى الخلق وطهارته ، ونسوا أن عنترة لو أراد أن يملك بسيفه ما يملأ الأرض خيلاً وإبلا لفعل .

فقالت :

إن أباك يا بنيتى ذو حسب ونسب ولا يريد أن يزوجك إلا من حسيب نسيب ، وعنترة عبد لا يملك إلا سيفه ولسانه .

تأوهت عبلة وقالت فى نفس طويل :

آه يا أماه ! مازلنا نجرى وراء الخيل والإبل والغنم ووراء الحسب والنسب اللذين نلتمسهما فى الأبوة والخئولة ، وإن لعنترة حسباً ونسباً غير الحسب والنسب اللذين تعرفين ، فهو لا يستمدهما من أبوة ولا خئولة ولكنه يستمدهما من سيفه ورمحه وقلبه وخلقه ، فقالت أمها :

وماذا ترين فى شعره الذى ملأ به الأسماع والبقاع ؟ فقالت عبلة :

ذلك وجيب قلبه ، يصوغه فى شعره ، ويعطر الأجواء بنفحاته ،

وذلك لى فضل عظيم ، منحنى إياه بطل عظيم ، حتى عرفنى القاصى والدانى ، وشغل الناس حديثى أينما كانوا ؛ فقالت :

كأنى بك وقد أحببت فى عنترة الفضل والرجولة ، والشهامة والمروءة ؛ فقالت عبلة :

لم تخطئى يا أماه الحقيقة ، وإنى بحبه لسعيدة ؛ فقالت :

وكيف حالك إذا جمعكما وحدكما مجلس ؟ فقالت عبلة :

بسمات مكنونة ، تشع براءة وعفة ، وومضات خاطفة ، تتألق هوى وصبوة ، وملامح وجه نقرأ فيها ما لا يقرؤه الناس ؛ فقالت :

لقد أعظمت الآن حبك ، وسموت فى نفسى برأيك ، وأرجو لأبيك وأخيك سداداً ورشداً ، ولك عزة ومجداً ؛ فقالت :

ولازال فضلك علىّ سابغاً !

١١

أقام الربيع بن زياد وليمة فى داره ، حضرها شاس بن زهير صاحبه ، ومالك والد عبلة ، وغيرهما من أشراف القبيلة ، فلما أكلوا وشربوا دار ذكر عنترة وعبلة على ألسنتهم ، وما أنشده من الشعر فيها ، وقال شاس :

إن هذا العبد قد ارتفع بنفسه فوق منازل العبيد ، وأصبح يعتقد أنه سيد من سادات بنى عبس ، وتلك حالة لا نستطيع الصبر عليها والإغضاء عنها ، فقال الربيع :

ما مهّد لهذا العبد سبيله إلى التطاول والتكبر إلا أبوك وأخوك ، ذلك رفعه وقربه ، وجعله من كبراء عشيرته ، وهذا كفله وحماه ، وحال بينه وبين ما كان قد أُعِدّ له من قتل أليم ، وقد كان سبباً فى أن أهدر دم عبدين من عبيدنا كانا لنا قرة أعين ، فقال عمرو بن مالك أخو عبلة :

إن وخز السهام أخف وقعاً من هذا الكلام ، فهل من سبيل إلى قتله ، وغسل شرفنا بدمه ؟ !

فاتفق شاس والربيع بن زياد أن يعد كل منهما عشرين عبداً من أشداء عبيده ويتحينوا فرصة تفرده فى الصحراء ويحمل جميعهم عليه حملة رجل واحد ، على غير علم منه ، ويقطعوه ويمزقوه ، وبذلك يهدأ كل غيور ، وتطمئن القلوب فى الصدور .

* * *

وكان لشداد بنت تدعى مروة ، من زوجة أخرى غير سمية ، وهى متزوجة برجل من بنى غطفان كان يزوج أخته من فارس من بنى قومه ، ودعت مروة أباها شداداً وبعض رجاله ونساء بنى عبس إلى وليمة

عرس أخت زوجها ، فسار إليها شداد وإخوته ورجاله ، ومن خلفهم النساء وفيهم عبلة وأمها ، يحميهن فى مسيرهن ، ويقوم بخدمتهن وشئونهن ، عنترة وأخوه شيبوب ، وكان أن تأخرت قافلة النساء ، فطلع عليهن فى الطريق مائة فارس بخيلهم وأسلحتهم من بنى المصطلق يطلبون مغنما ، وفى هذه اللحظة أقبل عبيد شاس والربيع يطلبون رأس عنترة .

فقال بسام عبد الربيع وأخو ضامر الذى قتله عنترة — لعبيد شاس والربيع : نحن نترك بنى المصطلق يقاتلون عنترة ، فإن ضعفوا أمامه شاركناهم ، وشددنا أزرهم وعاوناهم على قتله ، وإن غلبوه وقهروه كان همنا حماية نساء بنى عبس ، حتى لا تمتد إليهن يد بنى المصطلق بسوء ، وإن فنينا جميعاً فى سبيل ذلك ، فرضوا بذلك واتفقوا عليه .

ولما رأت النساء فرسان الأعداء بكين وضربن على صدورهن ، وأيقن مذلة وسبياً ، ولكن عنترة ابتسم إليهن وتقدم إلى أم عبلة قائلا : كيف حالكن الآن مع هذا العدو الذى غشينا بقوته بغتة ، فى هذه الفلاة المنقطعة ؟ ! فقالت :

بلاء طلع ، وسبى وقع ، وليس لنا فى ردهما حيلة ، فقال :

أتزوجينى عبلة وأنا أرد هذا العدو لأول حملة ، وتأخذين ما أغنمه من خيل ومال ، على أن يكون بعض الصداق ؟ فقالت :

أفى مثل ذلك الوقت يركن المرء إلى المزاح ؟ ! فقال :

لا أقول إلا صدقاً ، ولا أعرف وقت الجد مزاحاً ، واعلمى أنك لو وعدتنى أن أتزوجها غنمت الخيل وقتلت فرسانها ، ورددت هؤلاء على أدبارهم نادمين ، فقالت :

قم لشأنك ، وادفع عنا فهى لك إن كانت من نصيبك ، فقام عنترة إلى أخيه شيبوب وقال :

احم ظهرى واتركنى وشأنى ، فقال :

لا تخش من خلفك خطراً ولا شرًّا ! ثم صاح فيهم عنترة صيحة زلزلت الأرض والجبال ، وصال فيهم صولة قتلت قائدهم ، ثم صال أخرى وأخرى فإذا القوم يصرعون واحداً فى إثر واحد ، ولما كثر قتلاهم فر الباقون هاربين ، وتلقت النساء عنترة بالزغاريد والثناء .

ولما رأى العبيد أفاعيل عنترة ببنى المصطلق خارت عزائمهم وتملكهم الذعر فجبنوا عن ملاقاته وعادوا إلى الديار فاشلين وادعوا أنهم لم يعثروا على عنترة .

وسار عنترة بالقافلة ، حتى وصلت سالمة آمنة ، وهناك تلقوهن فى سرور عظيم ، وما كدن يجلسن حتى أنبأنهم هذه الحادثة التى رفعت عنترة فى نفوسهم إلى منزلة سامية ، لا يدانيه فيها عبيد ولا سادة ، ولما انتهت أيام الوليمة السبعة رجع بنو عبس ونساؤهم ، وعنترة معهم ، إلى ديارهم ، فماذا وجدوا هناك ؟

* * *

وجدوا نساء الحى قد شردن تشريداً ، واعتصمن بالبكاء والصياح ، واعتصم الرجال بأذيال البيوت ، يدافعون مدافعة من أيقن الردى ، وكانوا قد أوشكوا على فناء عاجل ، ولكن ما سبب هذا البلاء الواقع ، الذى ليس له من دافع ؟

كان الملك زهير قد أخذ فرسان بنى عبس وعدنان ، وسار بهم يغزون ديار بنى قحطان ، ويطلب عدواً له فيها يسمى المتغطرس ، وهو شهم قوى البأس ، شديد المراس ، من عرب بنى قينان ، وكان قد تجهز لغزو الملك زهير فى داره ، فخرج هذا فى جمعه ، ليلقاه فى طريقه قبل أن ينزل بأرضه ، إذ عزّ عليه أن يغزوه أحد فى عقر داره ، وترك لحماية الأحياء أخاه زنباعاً فى فئة قليلة من بنى عبس ، وشاء القدر ألا يتلاقيا فقد ذهب زهير إلى المتغطرس من طريق ، وأتى إليه المتغطرس من طريق ، والصحراء كالبحار كلها منافذ ومتاويه ، ولما ورد المتغطرس ديار بنى عبس وجد عصبة من الرجال ، قلّ عددهم ، وضعف جمعهم ، فقصد الخيام والخدور ، ودار بينه وبين هذه العصبة معركة بلغت أشدها ، وكانت بين قوة جارفة كاسحة ، هى قوة الغازين من بنى قحطان ، وقوة ضعيفة مستميتة مستبسلة هى قوة المخلفين من بنى عبس ، ولكنها لم تغن شيئاً ، فلاذت بأذيال الخيام مدافعة فى استماتة كانت فى الواقع رمز استبسال وبطولة ، وأكلت سيوف المغيرين ورماحهم كثيراً منهم ، وشرّدت النساء وامتلأت بهن البقاع على حال أسيفة تنم عن لؤم المغيرين ،

وتجردهم من كل نخوة وكرم ، حتى زوج الملك زهير نفرت فيمن نفرن، وحل بها من الهون ما حل بالجوارى والعبيد .

حضر شداد وشيبوب وعنترة ، فوجدوا ذلك البلاء المصبوب على بنى عبس رجالهم ونسائهم ، فنظر شداد إلى عنترة قائلا :

هذا يومك ، وإن لم تكشف عنا هذا الضر الماحق ، والكرب الساحق ، فلست منى ولست لك ، فإما فشل نقصلك وقبرك ، وإما نصر رفع ذكرك ، وخلد حياتك ومجدك . فابتسم عنترة ابتسامة الواثق المعتد بنفسه وقال :

سأريك اليوم رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إليهم غرقى فى دمائهم ، أو هاربين إلى أوطانهم ، فاجمعوا فرسانكم ، وقاتلوا تلك الشرذمة التى فى الميسرة ، ذات الأعلام المرفوعة ، حتى تشغلوها عنى بقتالكم ، فصاح شداد يا لعبس ! يا لعدنان ! هلموا بسيوفكم معنا إلى ميسرة الأعداء . أما عنترة فقد نزل على ميمنتهم ، وجال فيهم جولة حامية ، فمزق جمعهم ، وقتل المتغطرس قائدهم ، ثم ارتد إلى ميسرتهم فأعمل فيهم سيفه ، وبذلك هزمهم وغنم خيلهم وأسلحتهم ، ثم جاء أباه فقبل يديه، وقبله أبوه بين عينيه ، والتفت إلى أخيه زخمة الجواد وقال : لقد ملكنا بهذا العبد رقاب ذوى الحسب والنسب من رجالات العرب ، ولولا أنه ابنى ما صبر على تلك الشدائد من أجلى، فقال أخوه :

كيف لا يكون ابنك وقد حكم لك به قاضى العرب ؟ ! فلا تجحد نسبته إليك ، فابتسم شداد ابتسامة تنم عن تردد يساوره واعتراف بالبنوة يخشاه ويحذره، ثم غطى هذه الابتسامة سحابة من غضب وعدم اطمئنان، فعلم عنترة ما فى نفس شداد من امتناع وإباء ، ومخافة من إسناده إليه ، وجعل ذلك فى خبيئة نفسه فلا يبديه لأحد .

* * *

ولما خلا عنترة بأمه زبيبة قال :

لقد سمعتُ اليوم من مولاى شداد ، وأخيه زخمة الجواد ، ما أورثنى همّاً وأكسبنى غما ، وهأنذا سائلك ، فاصدقينى الخبر ، ولا تنكرى منه شيئاً ، وإن كان لا يروقك .

من أبى الذى دمى من دمه ، وروحى من روحه ، حتى أنتسب إليه ؟ فقصت عليه قصتها من يوم أن أسرتْ إلى أن حكم قاضى العرب لشداد بعنترة ، فقال :

إذا كان الأمر كما تقولين فلمَ لا ينادينى كما ينادى الوالد ولده ؟ ! فقالت :

إنى من أجل ذلك حزينة ، ولا أدرى له سبباً إلا ما أظنه من أن شداداً يخشى من ذلك العار ، فقد يقول العرب : إنه أبى بك من سفاح ،

أو أساء إلى أنساب العرب الصريحة بنسبتك إليه وأنت لا تزال فى نظرهم ابن أمة ، مع أن أمرى وأمرك كما سمعت من أملك ، وعجيب فى الناس أن ينسوا ما للأسير من شرف سابق وأصل عريق ، وبيت لا يسامى سؤدداً وعزة ، فقد عرفت أنى من أكرم البيوت فى الحبشة ؛ فقال :

إن الأمر بعد ذلك يسير ، وما عليه إلا أن يلحقنى بنسبه ، وسأكفيه ما يخشاه ، ولن يرى لساناً يتحرك بما لا يرضاه ، فسأخرس بسيفى هذا الألسنة فى الأفواه ، وسأطلب منه نسبتى إليه ، فإن رضى وإلا رحلت إلى قوم يعرفون قدرى ، وينزلوننى بينهم المنزلة اللائقة بى ، وسأطلب من أخيه مالك يد ابنته عبلة ، فإن رضى وإلا قتلته شر قتلة ، فقالت أمه :

لا تفعل شيئاً من هذا ، فإنهم الآن يحبونك ، بما أبديته من جليل فعالك ، فإن اعتديت وافتريت ، هدمت من حبك ما بنيت ، فاصبر صبراً جميلا ، والأيام حبالى يلدن كل عجيب ، فقال :

إن أم عبلة وعدتنى أن تزوجنيها ، فقالت :

ذلك فى عرف العرب ما لا يكون الآن ، لأنك فى زعمهم عبد لا نسب له ، ومن العار حينئذ أن تبنى بسيدة لها حسبها ونسبها ، فقال :

سوف أريك يا أماه كيف أكون فى الذروة من أشراف العرب

وساداتهم إن امتد بى العمر ، ولم يسرع إلىّ الأجل .

* * *

عاد زهير من غزوته ، ولم يكد يصدق أن الحى سلم من إغارة المتغطرس وسطوته ، وما كاد بنو عبس يرون غبرة قادمة ، حتى فزعوا وظنوها غارة أخرى ساحقة ، فأرسلوا طلائعهم يكشفون أمرها ، وما لبثوا أن جاءوهم ببشرى قدوم زهير وجيشه ، فنهضوا فرحين ، يتلقفونه بالدفوف والمزاهر والرايات ، كأنهم يحتفلون بمقدمه ، وقد أحرز نصراً عميماً ، وفوزاً عظيماً ؛ وما لبث زهير أن ترددت فى آذانه آيات الإعجاب بعنترة ، وبطولة عنترة ، وبلاء عنترة ، وذود عنترة عن الحمى ، وفتك عنترة بالعدا ، وهذه تماضر زوجته تقص عليه من أمر عنترة ، كيف صان الحريم ، وفعل ما لا يفعله إلا كل أبى كريم . فأقام زهير الولائم ، ودعا إليها أشراف العرب وساداتهم ، وكان فيمن حضر شداد وابنه عنترة ، فما كاد يراه الملك زهير حتى دعاه إلى مجلسه ، وأعلن أن عنترة نديمه من ساعته ، ففرح بذلك مالك بن زهير ، ومن يحبون عنترة ، ولكن شاساً والربيع بن زياد قد احترقت منهما الكبود غيظاً وغماً ، وانصرف الحاضرون وآمال بنى عبس متعلقة ببنى قراد من أجل عنترة وشجاعته ومروءته .

١٢

استقرت ببنى قراد مجالسهم فى ديارهم ، فتقدم عنترة إلى شداد وقبّل يديه ثم قال :

أراك يا مولاى قد ضننت علىّ بأمر شاع بين الأحياء ، وعرفه الأبعدون والأقرباء ، فقال شداد :

وما ذاك يا عنترة ؟ إنا لا نبخل عليك بأموالنا ، وأعزّ الأشياء لدينا ، فأوضح ما تبغى ، فلك عندى ما تشتهى . وكان شداد قد زعم أن عنترة يبغى متاعاً أو أمة من الإماء يبنى بها ، فقال عنترة :

ألست آتياً من صلبك ، ومخلوقاً من دمك ؟ فقال شداد :

ما فى ذلك من شك ولا ريب ، فقال عنترة :

وما يمنعك حينئذ من أن تدعونى ابنك وتلحقنى بنسبك ؟ إنك إن فعلت هذا كنت لك قوة ، بعزمتى وسنانى ، وهمتى وحسامى ، وأسبغت عليك من الثراء ما لم يُسْبَغ على أحد من الأثرياء .

فزاغ من شداد بصره ، وظهر الغضب فى وجهه ، وقال من فوره :

لقد حدثتك نفسك يابن الأمة بما فيه هلاكك ، وغرّك قربك من الملك زهير ، فسولت لك نفسك أن تطلب منى أمراً فيه رفعتك وشرفك ،

ولا ينالنى منه إلا كل ضعة ، وتركى حديث مهانة تلوكه الألسنة ، فلاجزاء لك عندى إلا الضرب بالحسام ، وقام إلى سيفه فانتضاه ، وعنترة ثابت لا يبالى من شداد بما يفعله ويراه ، وكانت زوجته سمية قد سمعت الحديث فأسرعت إلى شداد زوجها وتعلقت بصدره ، وأمسكت سيفه المجرد بيدها ، وقالت : لن أمكنك من فعلتك ، فلن أنسى أيادى عنترة السنية ، ولن يضيع مثلك صنيعه ، ويجحد معروفه ، فتكون أسوأ مثل للآخرين : أفنى بطرلة ، وأطفأ رجولة ، وأقبر مفخرة ، وأمات عنترة ؛ وما زالت سمية تروضه ، حتى سكت الغضب عنه ، وهدأت نفسه ، وسكنت ثائرته ، وأعاد سيفه إلى قرابه .

* * *

كبر على عنترة ما لقيه من جحود شداد والده ، فاستحيا أن يعيش بعد ذلك فى بيت بنى قراد ، فى الوقت الذى يتبرأ فيه أبوه شداد منه ، فقصد بيت مالك بن زهير ، يبث إليه شكواه ، ويقفه على ما عزم عليه ، فإما عزز رأيه بالموافقة ، وإما وجد عنده حلا لمسألته ، فالمرء مهما تبلغ قوته وحصافة رأيه ، فهو فى حاجة إلى مشورة من صدقت لديه نصيحته . ولما نبأه قصته قال مالك : يبدو لى أنه ما دفعك إلى ما طلبت من شداد إلا أمر عظيم له مساس بما طلبت ، فهل لك أن تكشفه لى حتى لا نعدو فى الرأى وجه الصواب ، وحتى نلج الأمر بعد التمحيص من أوسع الأبواب ؟ فقال عنترة :

إنى أحب عبلة حبًّا حرمنى شهى الرقاد ، وحالفنى من أجله السهاد ، وما طلبت ذلك إلا من أجلها ، حتى أكون من رجالها ، وحتى لا يجد أبوها فى نفسه غضاضة من امتداد يدى إليها ، نزولا على ما تعارف القوم عليه ، واستمسك العرب به ، ولو أنهم فى ذلك خارجون عن سنة الفطرة ، لأن الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، ولا فضل لأحد على آخر إلا بما له من أخلاق سامية ، وعمل صالح عظيم ، وما ذنب المواهب فى عنترة تجحد لأن ولدته امرأة كانت حرة كريمة ، فأصبحت بأسرها أمة ، وهى فى أصلها حسيبة نسيبة ، وبأى حق ينهض بالعاجز الضعيف أن أمه حرة ، ويقعد بالعامل النافع أن أمه أمة ؟ ! ولقد بلغ من السفاهة أن عد سواد اللون خسة ، وبياض اللون رفعة ، وتلك جملة الحال ، فانظر يا سيدى ماذا ترى ؟ فقال مالك وقد أخذ هذا القول من نفسه ، ورأى الحق فى جملته :

لقد كان أمرك هيناً لو أنك أطلعتنى عليه قبل أن يذاع ، ويصبح حديث الخاص والعام ، ويبدو لى أن أبواب عبلة قد غُلّقت من دونك ، ولو ألحقك أبوك بنسبه ، فإن أباها يعرف أن هذا الانتساب من أجل ابنته لا من أجل حقيقته ، فهو فى نظره نسب مقطوع معلول ، ولن يرضى لابنته إلا ذا نسب صريح خالص ، ولا أرى لك رأياً إلا أن تقيم فى دارى ، بعيداً عن كيد أبيها وكيد أعدائك ، حتى أعرض على أبى أمرك ، وعسى أن نجد مخرجاً ، فنجمع بينها وبينك ، فقال عنترة :

إنى سأذهب جميع النهار لشأنى فى الصحراء ، ثم أعود إليك فى المساء حتى لا تقع علىّ عيون الأحبة والأعداء، فى تلك الحال الذميمة الشنعاء . فقال مالك :

لك ذلك ، والله يفعل ما يشاء .

ماج الحى بحديث عنترة وأبيه ، وجعلوا يتقززون قائلين :

يا للفضيحة ويا للعار !! إذا كان أولاد الزنا يحشرون فى أنسابنا ، وتخلع عليهم أحسابنا ! ومالكٌ والد عبلة من بينهم فى هم عظيم ، يود لو أن عنترة نزلت عليه صاعقة من السماء ، أو هوت به الريح فى مكان سحيق ، وذهب إلى أخيه شداد وقال :

أيعجبك ما حولى الآن من قيل وقال ؟ لقد أصبح أمراً محتوماً قتل عنترة ، فقال شداد :

ولكن ذلك لا يكون جهرة وعلانية ، فقال مالك :

ولا بد من ذلك ، وإن حماه وأجاره مالك ، وإلا قتلت ابنتى ، وخرجت بقتلها من فضيحتى ، فقال شداد :

لا أزال أرى أن يقتل فى غير علانية ، أو نزج به فى أمر يكون لا محالة هالكاً فيه .

* * *

سمع شاس حديث عنترة من عمه وأبيه ، وأنه فى بيت مالك بن زهير أخيه ، فقال :

اتركا لى أمر قتله ، وسيأتيكم بعد قريب خبره ؛ ونهض فتقلد سيفه وقصد عنترة يطلب رأسه ، وأصر على هذا الشطط ، رضى أخوه مالك أم سخط . فجاء شاس أخاه فى داره وسأله :

أين عنترة الهجين ابن الأمة ؟ فأجابه :

ألك عنده حاجة ؟ فقال : حاجتى أن أقتله ، وأقتل من يجيره ، فقال مالك :

لابد أن يكون هذا العبد قد فعل فعلة أثارت غضبك ، وباعدت بين الحلم وذات نفسك ، فقال شاس :

لن أنسى قتله عبدى ، ولا منجاة لهذا العبد الهجين من يدى ، فقال مالك :

إن الحسنات يذهبن السيئات ، ولعلك تذكر له معروفاً لا ينكره كريم، فقد صان — كما تعلم — الحريم ، ودافع عن بيت أبيك دفاعاً كريماً ، وأنقذك من أسر محقق، وإذا كنت تنقم منه طلبه الانتساب إلى أبيه ، فذلك ما لا شأن لنا فيه ، وذلك ما ينبغى أن نتركه ونغفله ، حتى يأخذ بين العرب من الذيوع حظه ، فعسى أن يحسوا من أنفسهم جنوحاً للشطط فيه ، وبذلك يتبدل مناط الفخر ، ويتحول مبدأ السيادة ، فيصبح الشرف للفضيلة ، لا للنسب والثروة ، وكثرة العشيرة ، وبذلك يستقيم أمر الجماعة ، وإن عنترة يعتقد أنه مهضوم الحق من تلك الناحية ، ولهذا فقد اعتزل الجماعة ، واتخذ الصحراء له دار إقامة ،

ولعلك بعد هذا لا تراه ولا يراه أحد ، فقال شاس :

إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم ! فقال مالك :

وإن كنت لا تزال على رأيك ، فالصحراء أمامك ، وستجده هناك لا يناله سيف قاطع ، ولا يجد بغيته فيه طامع ، فقال شاس :

والبيت العتيق لئن رأيته بين الأحياء لأنزلن به الردى ، ولأجعلنه عبرة وذكرى ، ولولا أنك وأباك رفعتما ذكره ، ما طمع فى الانتساب إلى بنى عبس ، غير عابئ بما يجره علينا من مذمة ورجس ، ثم أخذ يلحف فى السؤال عن عنترة ومكانه ، فقال مالك :

لا أعلم إلا أنه غادر الديار إلى البيداء فى ظلام الليل وسكونه ، ولا أعلم له الآن مذهباً وسبيلا ، ثم انصرف شاس وهو موقن أن أخاه مالكاً لا يدرى عن عنترة شيئاً .

* * *

انتظر مالك عنترة فى داره ، ليلة ثم ليلة ثم ثالثة ، ولما لم يعد إليه ضاق صدره ، ولم يطق صبراً على فراقه ، ففزع إلى أبيه زهير ، وبسط أمر عنترة ، ثم حنق أخيه شاس عليه ، فقال زهير :

ويحك يا مالك ! لمَ لمْ تخبرنا قبل اعتزاله ، حتى أشفع له عند أبيه وعمه ، ثم أجعل له بيتاً من بيوتى ، وأزوجه من خراص الجوارى ؟ !!

فقال مالك :

رأيت حاسديه يأتمرون به ، وأنهم يتحدثون بذلك من يحبونه ، فخشيت من بقائه فى دارى فتنة واسعة لا ندرى مداها ، وربما امتدت إلى بيت الملك فهزت أركانه ، وأقلقت جوانبه ، فأرخيت العنان لسبيله ، على أن يعود إلى دارى كل ليلة ، حتى نتدبر الأمر ، ونكشف هذا الضر ، ولكنه لم يعد إلينا ثلاث ليال سويًّا ، فقال زهير :

لقد فرطت فى حقه ، وسأرسل الآن فى أثره من يبحث عنه ويرجعه إلينا ، ليعيش فى رعايتنا آمناً .

١٣

خرج عنترة من دار مالك إلى الصحراء فرأى أمامه غبرة خيل سائرة ، يبلغ فرسانها الأربعين ، فغمز جواده ليدركهم ، ويتبين أمرهم ، فوجدهم من بنى عبس ، وعلى رأسهم عياض بن ناشب ، فعرفهم وعرفوه ، وبعد أن حياهم وحيوه سأله عياض عن خروجه إلى الصحراء وحده ، فقال :

خرجت قانصاً صائداً ، ولما رأيتكم ظننتكم ممن يقطعون السبل ، ويفزعون السابلة ، فلما جئتكم ألفيتكم من صفوة الأكرمين ، وأخلص المحبين ، فقال عياض :

لقد خرجنا نبتغى الرزق والمال ، فقال عنترة :

وإن شئتم صحبتكم أبتغى ما تبتغون ، فقال عياض :

إن صحبتنا بلغت ما تريد ، وفضلناك على غيرك من العبيد .

فحزت هذه القولة فى نفس عنترة ، وحزن أن الناس فى فسحة الطبيعة الخالية لم يسلموا من عقم الرأى وبخس الفضل ، وأن ما ترك العمران من أجله ، لحق به فى وحدته وخلوته ، ثم حدق فى وجه عياض قائلا :

ماذا تعنى بقولك هذا ؟ فقال عياض :

لقد تعارف العرب على أنه إذا غزا عبد مع سادته جعلوا له ربع سهم من الغنيمة ، على سبيل التفضل والمنحة ، ولكنك إذا غزوت معنا أنت فضلناك على العبيد ورفعناك ، وأعطيناك نصف سهم مما نغنم ، فقال أحد الفرسان :

إن عنترة لا نظير له بين العبيد ، فهو يستحق سهماً كاملا ، ولو أنه كان من الأشراف والسادة ، لاستحق ثلاثة أسهم كاملة ، فنزل هذا القول على عنترة نزول الصاعقة ، وكظم غيظه فى نفسه ولم يبده لهم ، وقال :

اسمعوا يا قوم ، جدير بالحر الكريم أن يعدل ولا يظلم ، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فإن آثره كان أكرم ، وسأوثركم بفضلى ، وأمنحكم ثمرة جهادى وكدحى ، وذلك أن أغير على الخيل وحدى وما غنمت من شىء فلى منه مثل ما للواحد منكم ، فقال عياض :

يبدو لى أن ذلك حق لا نختصم فيه ، غير أننا نخشى العار والمذمة ،

عنه غيظه ، رؤية الحارث مقبلا على مهره ، فناداه عنترة :

أيها الفارس الكريم ، لى عندك حاجة ، ولك منى الأمان والسلامة ، فوقف الحارث فى حذر ويقظة ، وكان يبدو عليه آثار أسف وحسرة ، لأنه لم يستطع أن يدافع عن قوم أكرموه ، وكان أكرم له أن يبقى فيهم مدافعاً ، وإن مات فى سبيل الدفاع عنهم ، ولعله إذ واجه عنترة كان راجعاً إليهم ، متداركاً ما فاته بهربه . وقال الحارث :

عسى أن تكون حاجتك ميسورة ، أو لنا فى أدائها شرف وكرامة ! ! فقال عنترة :

وإن قضيتها كان بينى وبينك رباط صداقة ومودة ، فقال الحارث :

ومن أنت حتى نزن صداقتك ، ونقدرك قدرك ؟ فقال عنترة :

أنا الذى فررت منى لما خفتنى وأعطيتك الآن أمانى وحمايتى ، فقال الحارث :

إنى أسألك عن نسبك وحسبك ، فقال عنترة : نسبى سيفى ورمحى ، وحسبى كرم نفسى وعلو همتى ، فقال الحارث :

إنك إذاً لموضع آمال الناس ورغباتهم ، فقال عنترة :

والكريم لا يرجو إلا كريماً ، ولهذا عرضنا عليك حاجتنا ، فقال الحارث :

وما حاجتك ؟ قال :



أن تبيعنى هذا المهر الذى أنت راكبه ، بالثمن الذى تقترحه ، أو تهبه لى هبة كريمة ، ولك عندى من المعروف أضعاف ثمنه ، فقال الحارث :

إن حاجتك هذه فات أوانها ، ومضت ساعتها ، وإنك لو سألتنى هذا المهر وأنا فى بنى قحطان لمنحتك إياه راضى النفس ، ومنحتك معه غوالى الإبل ، ويبدو لى أنه فى متناول يدك إن أنت أجبتنى إلى طلبتى ، فقال عنترة :

هاتها أيها الفارس الكريم ، فقال الحارث :

وأظنها محببة إلى نفسك ، وأعزُّ من أجلها عندك ، فقال عنترة :

لعلها ذات صلة بالفضل والمروءة ؟ ! فقال الحارث :

هى من هاتين فى الصميم ، ولا يقدرها قدرها إلا كريم ، فقال عنترة:

ولك منى أن أقضيها قبل أن تذكرها وتطلعنى عليها ، فقال الحارث :

أن تشاركنى فى المروءة ، فتأمر العبيد أن يعطونى ما غنمتم من نساء ومال ، لأردها إلى أربابها من بنى قحطان ، على أن تأخذ منى هذا الجواد وتجعل لى من قومك الأمان .

فعرف عنترة صدق مروءته ، وكريم سجيته ، وعز عليه ألا يكون فى ذلك مثله أو أكثر منه ، فقال :

قد اشتريت منك هذا الجواد بهذه الغنيمة ، ولك عندى بعد ذلك يد

غير منسية ، وذمة لا تخفر ، وأمان من قومى لا يكدّر ، ثم أخذ عنترة الجواد ، وشيع الحارث بالغنيمة حتى غاب عن الأبصار ، ثم رجع إلى العبيد ، فساروا الهوينى حتى أدركهم بنو عبس .

لم يجد بنو عبس الغنيمة ، فسألوا عنها عنترة ، وهم منه فى دهشة وحيرة:

ويل لك يا ابن زبيبة ؛ أين ذهبت بالغنيمة ؟ ! فقال والثبات ملء قلبه :

دفعتها ثمناً لجوادى هذا ، وكسبت لكم بها حمداً ومفخرة ، ودفعت عنكم عاراً ومذمة ، فقد رأيت صاحب هذا الجواد جميل الشيم ، عظيم الوفاء والكرم ، وقد عاب علينا سبى النساء والغلمان ، فى غفلة من الرجال والفرسان ، فدفعت عنكم هذه النقيصة ، بإرجاع ما كسبناه من غنيمة ، وآثرت بذلك حسن الثناء ، على فضل المال والثراء .

استاء عياض لما فعله عنترة وقال :

جعلنا نصيبك من الغنيمة فوق نصيب العبيد ، فآثرت نفسك ، وأكلت أموالنا عدواناً وظلماً ؟ ! ! فقال عنترة :

لقد كان ما كان ، وسأخلفها لكم من غير هذا المكان ، إن بقى عهدنا ودامت صحبتنا ، وإذا كان هذا لا يرضيكم ، فليحكم السيف بينى وبينكم .

فاشتد غضب عياض وصرخ فى صحبه : حاربوا هذا العبد الأسود .

الذى بغى عليكم وتمرد ، وإلا تفعلوا كتب عليكم الخزى والهوان .

ولما رآهم عنترة قد استجابوا لصرخته ، انسل من بينهم بجواده ، وأنذرهم موتاً وهلاكاً ، فلما أحسوا بأسه ، وسمعوا وعيده ، وقفوا حيارى ، يدفع بعضهم بعضاً إلى منازلته وهم لا يفعلون ، ثم قالوا لعياض كبيرهم : ما دمت قد أشرت علينا بقتاله ، فتقدم أنت لمقارعته ، وإن رأيت الإعراض عن مخاصمته والرضا بما فعله فنحن راضون ، فقال عياض :

ما خاب من استشار ، ولقد بلغ هذا العبد من القوة ما جعلنا نيأس من قهره ، وخيرلنا أن نتخذه عضداً ، وحامياً وسنداً ، فقالوا :

تقدم حينئذ إليه ، وامنن بالغنيمة عليه ، واجعلها منحة وإهداء ، ليكون لنا حمى وملاذاً ، فقال :

ذلك خير لنا وأسلم ، ثم تقدم إلى عنترة وقال :

ويحك يا ابن العم ، لقد كنت أحسبك صادق الفراسة ، تميز جدّ القول من هزله ، وما كنا لنحملك على أن تشهر سلاحاً فى وجه بنى عمومتك ، من أجل غنيمة ملكناها بسيفك وشجاعتك ، فإذا جعلتها لك فلا بأس علينا من ذلك ، وقد رضينا بما فعلت ، وحمدنا لك ما صنعت ، على أنك لم تستول عليها لنفسك ، بل جعلتها دفعاً للعار عنا ، وثمناً لهذا الجواد الذى يعود نفعه علينا .

وظن عنترة أن هذا القول خديعة ، فلان فى قوله لهم ، ليطلع على ما فى نفوسهم ، فقال :

وإنى لن أنسى معروفكم ، ولا أجرد سيفاً فى وجوهكم ، فما أنا إلا عبدكم ، وصنيعة نعمكم ، ولولا أنتم ما كنت بين الناس مذكوراً ، ولا عند أحد مشكوراً .

وظن عياض أن عنترة قد خدعه زخرف قوله ، فالتفت قائلا إلى صحبه : ما قلت لكم إلا ما سمعتموه من خالص المودة ، وصادق المعونة ، لفارسنا عنترة ، ولقد طمع أن يأخذ هذا الجواد لنفسه . فصاحوا معاً :

وهبنا له هذا الجواد فرحين ، كما وهبنا له الغنيمة غير آسفين ؛ وانطفأت النار فى ظاهر من الأمر ، وإن بقيت متأججة فى خفيه ومكنونه ، وعنترة مدرك حقيقته وسره ، ومتخذ له حذره .

وتحرك عياض وجماعته يؤمون الديار ، والغيظ من عنترة يكاد يتقد فى النظرات والأبصار ، وأخذوا يتناجون خفية : كيف نسكت عن هذا العبد النحس ونحن أسود بنى عبس ، وشجاعتنا تملأ الدنيا ؟ ! ! إن الفرصة للغدر به مواتية ، فإذا غزونا حيًّا ، وقامت حرب بيننا وبينه ، جعلنا عنترة وقودها ، وأغلقنا فى وجهه سبل الفرار منها ، حتى يهلك ونخلص من شره ، وسمعهم عنترة يتلاومون ، ويأتمرون وهم سائرون ، فكان يسير معهم مرهف اليقظة ، حتى لا يأخذوه على غرة .

وبلغوا فى المساء وادياً فسيح الجنبات ، مخصب التربة فى ناحية ، ومُمْحلها فى ناحية أخرى ، تشرف على هذا الوادى هضبة انتشر فيها شوك

السعدان ، وارتفعت رءوسها فى مكان ، وتطامنت رءوسها فى مكان ، كأنها جماعة من الجنود بين قائم وقاعد ، وباتوا فيه إلى الصباح ، وبات عنترة معهم ، ولكنه لم يزر جفنه نعاس لأنه على يقين من أنهم يبيتون له غدراً ، ويحفرون له فى كل آونة قبراً .

وفى بكرة النهار استأنفوا رحيلهم ، فلاح لهم من بعيد جمل يحمل هودجاً ، فارتقبوه وتبينوه فإذا هو من ديباج موشى بحرير مختلف ألوانه ، يلوح على ظهر البعير كأنه قمة جبل ، وحُلّى جيد الجمل ورأسه بأنواع الحلى والزينة ، وغطى جسمه بملاءة سندسية ، رصّعت بالأحجار الكريمة ومن حوله الرجال والعبيد ، هؤلاء يحملون أسلحتهم ، وهؤلاء فى أيديهم أدوات الطرب يطبلون ويزمرون ، وآخرون على إيقاع الزمر والطبل يرقصون ويغنون ، ومن خلفهم جميعهم ستون فارساً على جياد تجيش أنفاسها فى صدورها ، وتضطرم القوة فى جسومها ، تخطو على إيقاع الموسيقى طربةً فرحةً .

عرف بنو عبس أن هذه عروس فى هودجها ، فى سبيلها إلى بعلها ، بين هؤلاء الشجعان من عشيرتها ، ولكن من هذه العروس ؟ ومن أبوها وأهلها ؟ ومن بعلها الذى ينتظرها ؟ ذلك ما لا يعرفون ، فقال بعضهم : وما علينا أن تكون هذه العروس بنت فلان أو زوجة فلان ، إنها غنيمة سيقت إلينا ، فلنغتنمها عوضاً عما فاتنا ، فهموا على خيلهم بالإغارة عليهم

وأسرع فرسان العروس إلى لقائهم ، وصافحت السيوف الرقاب ، وجالت الرماح فى الصدور والأجسام ، ودارت الدائرة على فرسان العروس ، فقتل منهم خمسون ، وفر عشرة بجيادهم ، وانجلت المعركة لبنى عبس عن نصر عظيم ، ولم يشأ عنترة أن يشترك معهم فى هذه المعركة ، حتى لا يمكنهم من تحقيق ما عزموا عليه من اغتياله فى أثناء القتال .

وجد بنو عبس هودج العروس كأنه مقصورة من مقصورات الجنان ، تتألق فيه العروس بجمالها ، وتبرق عليها حليّها وحلاها ، وتلمع على جبينها درة يتيمة ، يحليها وجه يخجل البدر من جماله ، على قوام ممدود ، وجسم يشع نضرة ، ويفيض نعمة ، فعلموا أنها من بنات الملوك ، وعرفوا من العبيد أنها أميمة بنت حنظلة الذى يدعى شارب الدماء ، وأن بعلها نائل بن الجراح فارس اليمن وصنعاء .

قال عبيد العروس لبنى عبس : لقد ركبتم بعملكم هذا أصعب الأمور وفتحتم لأنفسكم أبواب القبور ، وخير لكم أن تتركوا العروس ومن معها ، وتطلبوا لكم مفراً أو مهرباً ، قبل أن يفوت الأوان ، ويسقيكم أهلها كؤوس الهوان . فقال عياض :

ما أنتم إلا عبيد تقيسون الأمور بعقولكم ، وتحسبون الهين عسيراً ، والورم سمناً ، فظننتم أن وراءكم من يستردكم منا ، ويستخلصكم من أيدينا ، وذلك أمر دونه تقطيع الرقاب ، فلا تظنوا بنا الظنون ، فقد خرجنا

لتهدى إلى من نشاء ريب المنون ، وأخذوا يقطعون الفيافى والعروس ومن معها من العبيد مأسورون ، تعلو وجوههم غبرة الهزيمة ، ويتقلبون على نار من الأسى متأججة ، والعروس تندب حظها ، وتسيل دموعها على خدها ، فبعد أن كانت تنتظر من بعلها وعشيرته استقبال الكرام ، إذا هى تساق مأسورة سوق الأنعام ؛ كل أولئك وعنترة فى معزل من أمرهم ، ولكنه واقف على كل ما دار بينهم ووقع منهم .

فر الفرسان العشرة من وجه بنى عبس ، فذهب خمسة منهم إلى أبيها ، وذهب خمسة إلى بعلها ، يحملون نبأ الموقعة ، ويطلبون النجدة ، وأيقن عنترة أنهم مُدركون ، وأنهم من بعد غلبهم سيغلبون ، وأنهم عما قليل ليصبحنّ نادمين . فهؤلاء فرسان من جهة أبيها يعترضون سبيلهم ، وهؤلاء فرسان من جهة بعلها يغيرون عليهم من خلفهم ، وعزم عنترة أن يتخلى عنهم حتى يذوقوا الويل ، ويلمسوا بأيديهم حاجتهم إلى سيفه وشجاعته ، وقال لهم على سبيل التقريع :

هنئتم بما غنمتم ، وأرجو ألا تعكر الأيام صفوه عليكم ، فقالوا :

ما أسفنا على مال ضائع ، ما دمنا ذوى قوة نغير بها وندافع ، فقال :

وهذه غنيمة تفوق الغنيمة الأولى كثرة وقيمة ، وأرى أن تطرحوا عليها السهام ليأخذ كل منا نصيبه ، فيقوم عليه بحمايته وحراسته ، فقال أحدهم :

عجباً لك ، أخذت الغنيمة الأولى وحدك ، وتطمع أن تشاركنا فى

الثانية ، وما قاسمتنا جهاداً فيها ، ولا قتالاً عليها ؟! فقال عنترة :

ولقد وهبتم لى الغنيمة الأولى ، والكريم لا يسترد ما وهب ، ولا يتبعه منا ولا أذى ، فقال عياض :

صدق ابن زبيبة ، وما كان لنا أن نهب شيئاً ونسترده ، فاطرحوا السهام على هذه الغنيمة ، وأعطوه منها نصيبه ، فهو عبدكم ، وشرفه من شرفكم .

فغاظ عنترة أنهم لا يزالون ينادونه عبداً ، ولكنه كظم غيظه وقال :

على أن يكون لى نصفها ، ولكم جميعكم نصفها ، فقالوا :

لقد طمعت فى المحال يا ابن زبيبة ، وما نحسبك الآن إلا أنك تهذى هذيان المحموم ، فقال :

لا يهذى إلا مجنون أو معتوه ، وأنا أعرف ما أقول وأعنيه ، وأستطيع حملكم كرهاً عليه ، وإن لم تجيبوا دعوتى وتعطونى نصف الغنمة قاتلتكم ، وسللتها من أيديكم كما تسل الشعرة من العجين ، فانظروا ماذا أنتم فاعلون ، فثار عياض غاضباً وقال لصحبه :

دونكم هذا العبد الأسود ، الذى بغى وتمرد . وكان قد بان لهم إذ ذاك غبار يمشى على الأرض مشى السحاب ، يضىء ظلامه بريق أسنة وسيوف كالكواكب ، وبعد قليل سمعوا أصواتاً تملأ الأسماع نذيراً :

إلى أين المفر أيها الجبناء ، من حنظلة شارب الدماء ؟ لقد أتاكم

بجنده وخيله ، ولا منجاة لكم من يده ، وكان مع حنظلة ثلاثمائة فارس يخبون فى الحديد ، فانصرف بنو عبس عن قتال عنترة ، إلى لقاء هذه الغبرة المقبلة ، وعلم عنترة أن هذا اليوم يوم عسير ، وهو عليهم غير يسير ، فعزم على أن يتركهم وشأنهم ، ويكلهم إلى أنفسهم ، فلا يمدّ يد المعونة إليهم ، حتى يستصرخوه ، وأطلعهم على عزمه فقال :

يا بنى عمومتى ، قد جاءتكم جنود لا قبل لكم بها ، ولا مهرب لكم منها ، وقد طبع الحسد على قلوبكم ، فقطعتم حبل المودة بينى وبينكم ، بما أخذتم من المواثيق خفية على قتلى ، والآن قد غفرت لكم خطيئاتكم ، وجعلت نصيبى من هذه الغنيمة لكم ، فقاتلوا إن كنتم رجالاً دونها ، وادفعوا عنكم من جاءوكم يستردونها ، وأنا فى معزل عنكم ، ولا شأن لى بكم وإلى اللقاء ، إن بقيتم من الأحياء ، ثم تركهم إلى رابية عالية ، اتخذ منها مجلسه ، وبجواره جواده ، ينظر أمر الفريقين ، ومصير الجمعين .

وما لبث غير ساعة حتى سال الوادى بخيل الأعداء ، فلم يكن لبنى عبس إلا الكفاح واللقاء ، وقامت حرب ضروس ، التهمت النفوس ، وطوحت بالرءوس ، ولقى بنو عبس فيها عسراً وضيقاً ، واسترد حنظلة عبيده وابنته ، فتحركت الحمية فى صدر عنترة ، وأنسته الغيرة حقد بنى عبس عليه ، فهم أن ينكل بأعدائهم ، ويرد إليهم مغانمهم ، وركب جواده ، وانقض كالعقاب من رابيته ، وجعل يحصدهم حصداً ، وهم

يتساقطون بين يديه تساقط الورق الجاف مرت به ريح عاصف .

انتعش بنو عبس وقال بعضهم لبعض :

وشرف أنسابنا إن هذا العبد لأحق بالمغانم منا ، وإنه الآن لأحب إلى أنفسنا من أبنائنا ، وقاموا بما يستطيعون من معونته ، حتى فر الأعداء مقهورين ، مخلفين العروس ومن معها من عبيد ومغانم ، فأحاط بنو عبس بعنترة معجبين فرحين ، وقالوا :

لله درك من فارس صنديد ! ! وإنك فينا ذو شجاعة وبأس شديد ، ولو أخذت المغانم جميعها لكان ذلك قليلا بجانب جرأتك ، وعظيم وفائك وكريم مروءتك ، وإنا نلقى الآن بين يديك معاذيرنا ، لتغفر لنا خطايانا ، وما وقعنا فيه من فساد الرأى وسيئ الصحبة . فقال عنترة :

والكريم يقبل المعذرة ، ويعفى من الزلة ، ولا يجد فى نفسه من ذلك غضاضة ، وقد عفوت عنكم ؛ ثم جمعوا الأسلاب والمغانم ، وساروا فى غبطة إلى ديارهم .

أما بعلها نائل بن الجراح فقد وصل إليه نبأ العروس ، وكان شجاعاً تهاب سطوته ، وتخشى قوته ، له فى المعارك جولات أى جولات ، فنادى فى بنى معن : الخيل الخيل ! النجدة النجدة ! فلبوا النداء ، ونفر معه خمسة آلاف فارس ، يطلبون بنى عبس ، وقد فرقهم خمس فرق ، وأخذت كل فرقة سبيلها ، حتى لا يفوتهم درك عدوهم .

ولما كان بنو عبس على مقربة من ديارهم ، لمحوا غباراً سد الأفق من خلفهم ، فوقفوا شاخصين إليه ، وإذا فرسان بنى معن مقبلون عليهم ، تهتز فى أيديهم سيوفهم ورماحهم ، ويتقدمهم بعل العروس نائل بن الجراح ، وهو يصيح قائلاً :

لا مفر لكم من ابن الجراح ، أسد البطاح ، ومستل الأرواح ؛

فهال بنى عبس ما رأوا وما سمعوا ، ودخل بعضهم فى بعض خوفاً مما توقعوا ، وعنترة تبرق فى فمه ابتسامة مرحة ، ففزعوا إليه قائلين :

يا سيد الفرسان ، لقد علمت الآن كيف تطير هاماتنا ، وتذهب نفوسنا ، وليس لنا مهرب ولا حيلة ! فقال :

أيها السادة الأمجاد ، إن الآجال محدودة ، والأعمار مقدورة ، لا تبديل فيها ولا تغيير ، ولا تقديم ولا تأخير ، فمن امتد أجله تخطاه الموت وتركه ، وإن كان تحت السيوف والأسنة ، ومن جاء أجله أدركه الموت وإن كان فى برج مشيد ، وإنى لمثل هذا اليوم لمرتقب ، فخوضوها معى ولن يصيبكم إلا ما كتب لكم .

ثم حمل عنترة على الأعداء حملة الأسد الضارى ، وحمل معه بنو عبس ، وجعل عنترة يوزع المنايا ، وينثر على الأرض الضحايا ، ولما رأى ابن الجراح مقبلا عليه ارتد على عقبه ، ليفسح المجال لنفسه ، ويمكن منه سيفه ورمحه ، وابن الجراح مستمر فى إقباله ، يحسبه مدبراً من خوفه ، واشتد به طمعه ، وأيقن أنه قاتله ، ولكن عنترة لم يمهله ، فلم يكد

كل منهما يبغى صاحبه ، حتى هجم عليه عنترة وقتله .

ثار جيش ابن الجراح ثورة علا فيها صياحه ، وتكاثروا على عنترة من كل ناحية ، يثأرون لفارسهم ، وينتقمون لأنفسهم ، واشتدت وطأة القتال على عنترة ، حتى طاب له الموت واستعذبه ، وهم لا ينالون منه ولا يتحولون عنه .

وقد فر جماعة عياض وتركوه وحيداً

وبينما هم على هذه الحال إذ طلع عليهم جيش له همهمة كهمهمة الرعد ، يتقدمه مالك بن زهير ، على جواد يتدفق تدفق العقاب ، وكان هذا الجيش قد جهزه زهير للبحث عن عنترة ، فلقى مالكاً فى طريقه عبسى من رجال عياض دله على مكانه ، وكان ممن فر من الموقعة هارباً ، وقال :

لقد تركنا عنترة فى حومة الوغى ، تنهب الرماح جسمه ، ويحيط به الموت من كل مكان . فصاح مالك : لقد هلك عنترة وأيم الكعبة ، لئن كانوا قد قتلوه لآخذن بثأره مائة فارس منهم . وأسرع إليه ، وأمر الجيش أن يخوض المعركة وينشط للتفتيش عن عنترة ، فتسابق الفرسان إلى نجدته ، واستعاد عنترة نشاطه ، واستحث حسامه ، وجعل يرفع إلى السماء الأرواح ، ويلقى الجثث فى البطاح ، والجيش يشد أزره ، ويحمى ظهره ، ويحول بينه وبين من يريده من الأعداء ، حتى هزم بنى معن ، وحاز أميمة وغيرها من عبيد ومغانم ، ثم رجعوا إلى ديارهم مظفرين غانمين .

* * *

ونادى البشير معلناً قدوم مالك بن زهير وعنترة ، فى جيوش المليك المظفرة ، فأسرع زهير إلى لقائهما فى جمع حافل من سادات العرب وكبرائهم ، ومن بينهم شداد ، ومالك أخوه ، وعمرو ابنه ، وشيبوب أخو عنترة ، الذى أظلمت الدنيا فى عينيه مدة غيبة أخيه ، ثم أضاءت بقدومه سالماً ، ومن حول الملك الرايات المرفوعة ، ومن خلفه من خرج إلى اللقاء من شعبه ، وفى ساحة فسيحة من مدخل الديار ، وقف الجمع وقفة الانتظار ، بين مظاهر الفرح والإكبار ، فكنت ترى جماعات مبعثرة ، فهذه جماعة تلعب بالعصا ، وتلك يتسابق على الجياد فرسانها ، وأخرى ترفع الصوت بنشيد الحماسة والنصر ، وهؤلاء يضربن على الأكف ويغنين أغنيات تفعل بالألباب ما لا يفعله السحر .

وتقدم عنترة إلى المليك فقبل يديه ، وهذا قبله بين عينيه ، وعتب عليه رحيله دون أن يعرض عليه ما أغضبه ، وحبب إليه الفرقة والاعتزال ، فقال عنترة : لا يزال الأمر بين يدى مولاى ، وما زلت مغموراً بفضل سيدى مالك ، الذى نجانا من المهالك ، وما زلت عبد معروفك ، وغرس نعمتك .

لم تكن عودة عنترة إلى الديار على هذه الحال السارة بمستساغة فى نفوس كل من شاس بن زهير ، والربيع بن زياد ، وعمارة أخيه ، ومالك ابن قراد ، وابنه عمرو ، وعجبوا أن رجع سالماً مظفراً ، بعد أن منوا أنفسهم بغيبته غيبة أبدية لا رجوع له منها .

وكان شداد قد اجتمع بأخيه مالك والد عبلة ، وأخبره أن الملك زهيراً عتب عليه فى أمر عنترة ، ونقم منه التفريط فيه ، ومعاملته معاملة قاسية ، فأجابه مالك أخوه :

لئن عاد هذا العبد سالماً ، واتخذ له من بيت الملك سنداً وحمى ، فإنى لا محالة مهاجر من ديارى بمن يعزّ علىّ من أهلى إلى حيث لا يعرفنى أحد ، حتى لا أكون موضع استهزاء وسخرية من أجل عنترة وحبه ، فقال شداد :

لقد أعظمت هيناً ، وكيف تهتم بعبد لا قيمة له ؟ !! ومع هذا فاهدأ نفساً واطمئن بالا ، وسأكلفه عملا يلقى فيه حتفه ، لتستريح من وجوده . وما زال شداد بأخيه حتى هدأت ثورته ، واطمأنت نفسه .

* * *

جلس زهير فى دار الضيافة ، وقام بتوزيع الغنيمة ، فبيت الملك له نصيبه ، وكل فارس له نصيبه ، وجعل أميمة بنت حذيفة فى بيته قائلا :

هذه بنت ملك لا يجرى عليها بيع ولا شراء ، ومقرها بيت كبيت أبيها ، تنعم بما كانت تنعم به فيه ، وتحيا الحياة اللائقة بها فى نواحيه ، وأشاد بذكر عنترة وما له من المكانة عنده ، وكان ذلك على مسمع من مالك والد عبلة ، وابنه عمرو ، فاغتاظ مالك لهذا وأسر لابنه عمرو قائلاً :

لا يزال عنترة يرتفع شأنه عند زهير ، وذلك ما يزيد طمعه فى أختك

عبلة ، فقال عمرو : إن طمع عنترة فى بناتنا أفسد علينا اعتزازنا به واعتمادنا عليه ، فلو رأيت أن تعجل بزواج عبلة من سيد شريف ، لانقطع طمعه فيها، وأصبح فى يأس منها ، وأنت تعلم مبلغ إعجاب زهير وابنه بعنترة ، ونحن لا طاقة لنا بهما ، فقال أبوه : سترانى جاداً فى تدبير مكيدة تقضى عليه ، حتى نأمن شره وشر من يحبه ويؤيده ، دون أن يعلم أحد ما دبرنا وما كدنا ؛ ثم أعلن الملك انفراط المجلس ، وذهب كل إلى شأنه .

١٤

غادر الملك بيت الضيافة إلى بيته ، وهناك جمع أولاده العشرة ، وجعلوا يتحدثون فى شأن عنترة ، وما وهب له من بلاغة وشجاعة ، وأفاضوا الحديث فى ذلك حتى طلب زهير عنترة ليسمعهم من نوادره ، ويقص عليهم من مواقفه ومغامراته ما يملأ نفوسهم غبطة . فلما حضر أجلسه بجواره وسقاه من شرابه ، وجعل عنترة يقص عليهم من نادر الحوادث وعجيب المغامرات ما نال به إعجابهم .

ثم أحس حاجة إلى الخروج ، فاستأذنهم على أن يعود إليهم بعد قليل ، وفى تلك الفترة عقّ شاس غيبته ، وقال فيه قولا لا يليق به ،

وعتب على أبيه أن رفعه ، وأدنى منه منزلته ، فقال أبوه :

لا ينبغى للحسد أن يتخذ سبيله إلى أبناء الملوك ، حتى لا يبخسوا الناس أشياءهم ، وحتى لا يحطوا من أقدارهم .

ثم رجع عنترة واستأنفوا الحديث فى مختلف الشئون ، حتى تناولوا به عبلة وأهلها ، فتحرك شوقه إلى الشعر ، وأنشد أبياتاً مدح بها الملك زهيراً بما هو أهل له من فضل وكمال ، فقال زهير :

لقد أوليتنى من الثناء درراً ، ولا تقم إلا ومعك منى جاريتان مولدتان وعقد من الجوهر ، لتكون رمز محبة وتقدير ، ثم انفض المجلس وشاس بن زهير فى نار من غيظ .

* * *

انقلب عنترة إلى أمه زبيبة مسروراً ، وكان قد مضى من الليل ثلثه ، فوجد نساء الحى فى انتظاره جالسات حول نار موقدة ، فى فناء فسيح أعد لسمرهن أمام الأخبية ، وكلهن فى ارتقاب عنترة ، وأشدهن شوقاً إليه وترقباً له عبلة .

أطل عنترة عليهن فدوّى المكان تحيات وزغردة ، واستوى بينهن جالساً متحدثاً ، وهن يصغين إليه فى إعجاب ويقظة وفرحة ، وهو لا ينفك ينظر إلى عبلة نظرات خاطفة تضىء لها جوانب نفسها ، وكأنها

فهمت أنه يريد أن تبدأه بالحديث فقالت :

وأين نصيبك من غنائمك ؟ لعلك وزعتها على أصدقائك وعشيرتك .

فقال :

ما عدوت الواقع ، فقد أعطيت أبى وعمى جميع ما نالنى ، وهاتان الجاريتان المولدتان وهذا العقد من الجوهر هبة لى من الملك زهير ، وجميعها منحة لك منى ، ومعها قلبى وروحى ، فتقبلتها فى ابتسامة صامتة ناطقة ، وأهدت إليه نظرة طويلة كلها ولاء ومودة .

وغرق المجلس وقتذاك فى سكون عميق ، تنفس عن أصوات نساء الحى بتهنئة عبلة ، ثم سألهن عنترة :

وكيف حال الحى وأهله ؟ فقلن له :

لقد خرج أبوك ومالك عمك فى عشرة فرسان شداد ، إلى لقاء قيس بن ضبيان من بنى قحطان ، إذ جاءهم نبأ مروره بأرضنا ، وكبر عندهم ألا يخرجوا إليه فى ابتغاء ماله ، فاستأذنهن من فوره ليلحق بهم ، ويكون عوناً لهم فيما يريدون .

* * *

خشى عنترة على أبيه ومن معه من قيس بن ضبيان وفرسانه ، وهو المعروف بين العرب بعظيم بلائه فى الحرب ، ومنعته أن يُنال ويغلب ،

كما خشى أن يعودوا مقهورين ، فيكون ذلك سبة فى بنى عبس ، وأعلن عتبه على أبيه وعمه إذ خرجا على غير علم منه إلى تلك الغارة ، وتقلد عدته وركب جواده ، وسار وأخوه شيبوب معه إلى حيث أبوه وعمه مودعاً أكرم وداع وأجمله .

وبينما هما يشقان سواد الليل ويخوضان فى ظلماته ، قال شيبوب : يا عنترة ، فأجاب :

لبيك يا ابن أمى ، فقال : استمع لقولى ونصيحتى ؛ لقد أسرّت إلىّ زوج أبيك أن عمك مالكاً وابنه عمراً ومن يقاسمهما بغضك من الفرسان يتربصون بك الدوائر ، ويضمرون لك السوء فكن منهم على حذر ، ولعل أباك أحس هذا التآمر فأخفى عليك أمر هذه الغارة حتى لا تصحبهم وتكون هى وسيلة إلى اغتيالك ، فقال :

سمعاً وطاعة ، وسأريك أينا أسوأ مصيراً وأينا أهدى سبيلا .

وقطعا جميع الليل وغُدوة النهار ، ثم اعترضهما فى سبيلهما فارس من بنى عبس غارق فى دمائه ، يكاد يقع على الأرض من شدة ما ألم به ، فقال عنترة :

هذا نذير البلاء ، ولعل القوم قد نزل بهم ما يكرهون ؛ وأقبل عليه وسأله :

كيف حالك وحال من كنت فيهم ؟ فقال :

خرجنا مع سيدك شداد للإغارة على قافلة لبنى قحطان ، فوجدناهم نازلين على غدير فى حراسة قيس بن ضبيان ، ولما أحس هذا قدومنا صاح فينا صيحة زعزعت أقدامنا ثم أتبعها بهجوم أذاقنا به الويل والهوان ، وأصيب عمك مالك ، وأسر شداد مولاك ، فإذا كنت ذاهباً إليهم فخير لك أن تعود ، فلن تستطيع لقاءهم ، فقال :

لا بأس عليك ، ولا خوف على قومك ، وسألقاهم وأذيقهم بسيفى الموت الأليم ، وأرجع إلى الديار بقومى سالمين غانمين ، وأرجو لك سلامة وراحة .

ولما شارف عنترة وشيبوب أخوه الغدير لم يجدا أحداً عنده ، فدار عنترة بنظره فيما حوله ، فوجد أباه شداداً وعمه مالكاً ومن معهما من بنى قراد مأسورين ، يسوقهم قيس بن ضبيان من خلفهم ، وجعل جماعته ذات اليمين وذات الشمال من حولهم ، فغمز عنترة جواده فما لبث أن كان فى محاذاته ، فالتفت إليه قيس قائلا :

أنا ابن ضبيان كاشف الكرب ومجيب الداعى ، ألك حاجة أيها العبد الأسود ؟ فقال عنترة :

حاجتى أن تطلق سراح من أسرتهم من بنى قراد ، فقال :

خسئت وخسئ من كان على شاكلتك ، فقال عنترة :

ولن ينجيك من يد عنترة إنس ولا جان . فقال قيس :

ومن عنترة هذا ؟ أليس عبداً يعف السادة عن منازلته ؟ فقال عنترة :

وسأرغمك على احترام سوادى إن قدر لك البقاء .

وما كاد أصحاب قيس يحسون قدوم عنترة ويسمعون قوله حتى وقفوا مرتقبين ما سيكون ، ثم دعا عنترة قيساً إلى النزال ، وصال صولة أذهبت رشده ، وطعنه فى صدره فخر صريعاً ، ثم عرج على صحبه وصرخ فيهم صرخة جعلتهم فى أمر مريج ، وصدع جمعهم بسيفه ، وشيبوب يحمى ظهره فكانوا بين قتيل وهارب ، وخلفوا أموالهم وما غنموا ومن أسروا ، ثم أقبل عنترة على قومه ففك أغلالهم ، وهنأهم بنجاتهم ، ورجعوا إلى ديارهم بما غنموا فرحين ، وهناك وضعوا المغانم بين يدى زهير وأخبروه ما كان من عنترة وصنيعه ، فقال :

لا يزال عنترة يغمركم بإحسانه ، ويحميكم بسيفه وسنانه ، فجدير بشداد أن يحرص عليه حرصه على نفسه ، وأن يعلن بين العرب نسبته إليه ، ويضم إلى بيت قراد مجداً لا يسامى وفخراً لا ينال ، فكان لقوله هذا وقعه الأليم فى نفوس شاس والربيع ومالك بن قراد ومن على شاكلتهم ممن امتلأت صدورهم حقداً وحسداً .

* * *

وبينما هم على هذه الحال إذ طلع عليهم مائة فارس فى أسلحتهم ، فظنوا أنهم يريدون بهم الشر والأذى ، يقدمهم غلام حسن الخلقة ،

الخلقة ، بهى الطلعة ، فتقدم إلى الملك زهير مغرورق العين ، فسلم وحيا وقال :

إنى سليل نعمتك وغرس تربيتك فى بيتك فأجرنا من ظالم جائر لا يرقب فينا إلا ولا ذمة ، ولا يرعى عهداً ولا حرمة .

فانتبه المجلس إلى الغلام ، وكان عنترة أشدهم تلهفاً على معرفة أمره ، حتى يكون له يد فى دفع ما نزل به .

لم يكن هذا الغلام بعيداً عن بيت زهير فى نشأته ، فهو أخو مالك ابن زهير من الرضاعة ، وذلك أن أمه أسرت فى غزوة زهير لبنى مازن ، فجعلها بين الجوارى فى بيته ، وكان غلامها هذا ومالك بن زهير رضيعين ، وبدت عليها ملامح النبل والكرم ، فوكل إليها القيام عليهما وإرضاعهما ، وطابت معيشتها فى بيت زهير فاطمأن بها المقام فى ظلاله ، والبقاء بابنها فى كنفه .

وذات يوم زارتها أختها فأكرمت من أجلها ، وعرضت عليها أن ترجع معها إلى أهلها ، فكبر عندها أن تفارق بيتاً أكرم مثواها ورغب فى بقائها ، فجعلت تثير شوقها إلى أهلها حتى أسلس قيادها ورغبت أن تعود معها ، فذهبت إلى مولاتها تماضر زوج زهير مترسلة أن تعينها على العودة مع أختها ، فلبت رغبتها وأذن الملك فى رحيلها ، وشيعها فى حرس من رجاله ، مزودة بكثير من ماله .

نشأ هذا الغلام فى بيت زهير نشأة كريمة ، ورأى فيه بنو مازن بعد أن انتقل إليهم فارساً جريئاً لا يهاب سطوة ولا يخشى قوة ، كما وجدوه فى المعارك داهية وناراً حامية .

أعجبته نعيمة بنت خاله ، فتمكن حبها فى فؤاده ، ورام أن يتزوجها ولكن الحياء منعه من مكاشفة خاله فيها فأرجأ الكلام إلى حين ، عسى أن يتمزق حجاب هذا الحياء ، أو تتاح له فرصة يفضى فيها بما يشاء .

وفى فترة الإرجاء والانتظار قدم على خاله رجل من بنى برجم ، يدعى عوف بن غيلم ، وخطب إليه ابنته فى حضرة ابن أخته الغلام حصين الذى رأى ملامح الرضا فى وجه خاله ، فقال له :

خالى الكريم ، إننى أنا ابنك ، وأولى الناس بنعمتك ، فأنا أحقهم بابنتك ، فعظم على عوف أن يعترض هذا الغلام سبيله ، وهو فى زعمه لم يبلغ من الشجاعة والبأس مبلغه ، وبدا على وجهه الغضب والاستخفاف بالغلام وقوله ، والتفت إلى والد نعيمة مرتقباً ما يقول ، فقال حصين :

يلوح لى أنك ممن غرتهم أنفسهم فأخطأت فى تقدير الناس وإنزالهم منازلهم ، ولو كنت فى منزل غير منزل خالى لأزلت رأسك بحسامى ، فقال عوف :

يخيل إلىّ أن ذلك الرجل الذى يطمع فى مناوأتى والوقوف فى سبيلى لم يخلق بعد ، فقال :

لقد خلق ، وهو ذلك الغلام الذى يحدثك ، فقال عوف :

لقد أوجبت علينا الآن مبارزتك ، لأردك إلى صوابك ، أو لتكون عبرة لأمثالك ، فقال الغلام :

وأشد لزوماً من ذلك أن أنتزع بحسامى هذا الغرور من نفسك ، وأجعلك للناس آية ، ودونك وما تريد .

وعلى مشهد من العرب خاضا معركة المبارزة ، فأمسك الغلامُ البرجمى وأنزله عن فرسه ، وهم أن يضرب عنقه فأسرع إليه خاله وأمره أن يعفيه وقال :

من العار أن تقتُل ضيفاً أكل طعامى وأقام فى ذمامى ، فعفا عنه معجباً بنفسه مسروراً ، وبادر البرجمى بالخروج من الحى خائباً .

١٥

كان فى بنى قحطان فارس صنديد يدعى عسافاً ، شكا إليه قومه قلة المال وبؤس الحال ، فركب فى عدد كثير وجم غفير ، وأبعد فى الفيافى حتّى أشرف على حى بنى مازن ، فرأى نعيمة بنت نجم خال الغلام

بين الفتيات على غدير هناك ، وجهها مشرق ، وشعرها الطويل مرسل على قامة هيفاء ، فأحبها حبًّا عظيما ، وأرسل فى الحال رسولا إلى أبيها يخطبها قائلا :

إن عسافاً أرسلنى إليك خاطباً ، يبغى ابنتك نعيمة لنفسه ، فإن رضيت فلك ما تشاء من المهر ، وإلا أخذها أسيرة كالأمة ، وصب الويل على من يعترّض سبيله ، فأجاب نجم أبوها :

لقد تزوج ابنتى حصين ابن أختى وخرج الأمر من يدى ، فإن اقتنع صاحبك فهو العربى الكريم ، وإن لم يقتنع وأنفذ إلينا رجاله حاربناه فإما انتصرنا انتصار الأحرار ، وإما متنا موت الكرام . ولما وقف عساف على إجابة أبيها قال :

لن آخذها إلا بسيفى وقد أعذر من أنذر .

وعاد حصين من غزواته ومعه مغانم كثيرة ، وأعطى خاله المهر الذى أراده ، ولكنه أنبأه أمر عساف ، فقال حصين :

إن أصر على وعيده فإنى كفيل بمحو آثاره وتخريب دياره ، ولأستصرخن مولاى الذى ربيت فى مهاد نعمته ونشأت فى قصره ، فلا يشغلك أمره ، فاطمأن خاله وأخذ يعد العدة لزفاف ابنته ، ولكنه نقض عزمه ورجع فى قوله ، إذ جاءه أن عسافاً عما قليل مقبل عليه فى جند كالرمال ، ومعه عوف بن غيلم البرجمى ، وقال :

يابن أختى ما كان لى أن أنقض أمراً أبرمته،ولكن المضطر يركب أصعب الأمور وهو عالم بركوبه ، والعاقل من ركب أخف الضررين إذا لم يكن له مفر من ركوب أحدهما ، فقال حصين لخاله :

أمهلنى عشرة أيام لا تقض فيها بشىء يتعلق بزواج نعيمة من هذا أو ذاك ، ولك بعدها فى أمر ابنتك ما تشاء .

وكان حصين بين يدى الملك زهير فى مائة فارس يشكو ويستنصر على نحو ما قرأت أولا ، فقال زهير :

أبشر يا بنى بكل خير ، فسأدفع عنك كل ضير ، وسأجمع بينك وبين زوجك نعيمة فى مسرة وطمأنينة ، والتفت إلى ابنه مالك قائلا :

سر يا بنى لنصرة أخيك ، ومعك عنترة بن شداد يعينك ويقويك ، فقال :

سمعاً وطاعة ، وليكن ما أردت .

مضى الليل وأطل وجه النهار ، وامتلأ ظاهر الحى بفرسان كالأسرد وسار بهم مالك بن زهير إلى غايتهم ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع حطوا رحالهم يستريحون .

وغادر عنترة الجمع وحده إلى الخلاء ليقضى بعض الوقت فى سكونه وصمته ، فوجد فارسين يتهيآن للقتال والمبارزة ، فقال :

ما خطبكما ؟ فاندفع أحدهما إليه وطلب أن يجيره ، فقال :

أطلعنى على جلية أمرك وأصدقنى نبأك ، فقال :

نحن أخوان شقيقان ، وأخى هذا أكبر منى سناً ، وأبونا الحارث بن تُبع سيد بنى حمير ، وكان له سيف يسمى الظامئ ، ولما أحس دنو أجله دعانى إليه سراً وقال :

إنى أخاف عليك من أخيك فخذ هذا السيف واخف أمره عنه ، فإذا جار عليك من بعدى وظلم ، فاذهب به إلى من شئت من ملوك العرب فإنك واجد بسببه العون والغنى ، فصدعت بأمره ودفنته فى مكان بالصحراء أعرفه ، ولما مات أبى تفقد أخى هذا السيف فلم يجده ، فأنذرنى بالقتل إن لم أدله على مكانه ، ولم أر مفراً من طاعته ، وجئت به إلى مكان السيف وجعلت أبحث فيما أعرف وما لا أعرف ، ولكنى لم أجد إليه سبيلا ، فلم يصدقنى وعبثاً حاولت إقناعه ، فسل سيفه يبغى قتلى وتهيأت للدفاع عن نفسى ، فكان قدومك إلينا ، فاحكم بما ترى بيننا .

فتقدم عنترة إلى الفارس الثانى وقال :

لمَ تظلم ابن أمك وأبيك ؟ فاستكبر وأبى أن يجيبه وسل سيفه من غمده وهجم عليه يريد قتله ، ولكن عنترة سبقه وغرز رمحه فى صدره فخر صريعاً ، فشكر الأخ الأصغر لعنترة جميل عونه ، واستودعه إلى دياره وأهله .

ونزل عنترة عن جواده وجلس على الأرض هنيهة ، وجعل ينكت

الأرض بأنامله ، فعثر بغمد جذبه إليه ، وسل منه سيفاً يسيل الموت من حديه ، فعلم أن نجم سعوده لا يزال فى صعود ، ورجع إلى مالك بن زهير وقص عليه خبره ، فسر سروراً عظيما ، واعتقد أن هذا الحادث بشير فوزه ونصره .

وسبح جيش مالك فى الصحراء وهو آمن حتى شارف ديار بنى مازن ، فوجد نيران الحرب متأججة ، والقتال بينهم وبين عساف على أشده ، وسمع عسافاً ينادى فى جنده :

أن خذوا على بنى مازن الخناق ، واضربوا منهم السوق والأعناق ، فلكم جميع ما تغنمون ، وليس لى فيه إلا نعيمة بنت نجم ، فأمر مالك حصيناً أن يجيبه :

يا عساف ، خاب سعيك وضاع أملك ، ولقيت اليوم حتفك ، فقد جئتك برجال ذوى سيوف ماضية لا تبقى منكم باقية ، فأجابه :

إن عسافاً لا يبالى بجمعك ، ولا يعبأ بجندك ، وسترون منى لكم هزيمة منكرة .

فأقبلت فرسان بنى عبس كالعقبان الجائعة ، وعنترة أمامهم كأنه الليل يتدفق تدفق البحر الهائج ، ودب بجمعه بين الأعداء وبين الموت ، فنثروا الجماجم نثراً ، ودمروهم تدميراً ، وانكشفت عن بنى مازن الغمة وفر عساف ومن بقى معه إلى ديارهم خائبين ، وفرح بنو مازن لهذا النصر المبين ،

وكان أكثرهم فرحاً عنترة ، وتحولت الديار فى لمح البصر من مجازر ومذابح إلى معالم أفراح تقام هنا وهناك ، للنصر الباهر الذى أحرزه بنو مازن ، واحتفالا بزواج حصين بنعيمة بنت خاله ، فهذا جمع من العرب يتفرجون على سباق الخيل وألعاب الفروسية ، وهذا حفل من الفتيات والنساء يغنين ويرقصن ، وصغار الأولاد يلهون ويمرحون بين هؤلاء وهؤلاء ، وبعد ثمانية أيام على هذه الحال دخل حصين بنعيمة ، ورحل مالك وجيشه مودعاً أجمل وداع وأكرمه ، واستقبلوا فى ديارهم استقبالا سجل لهم كل إعجاب ومفخرة .

١٦

كان للربيع بن زياد أخٌ يدعى عمارة ويلقب بالوهاب ، وكان بهىّ الطلعة حسَن الخلقة ، عليه مسحة من الجمال المقبول ، وكان أنيق الملبس جميل الهندام ، معجباً بنفسه وبما وهب له من حُسن التقويم ، معتزّاً بجاهه العريض وثرائه الواسع .

سمع عمارة هذا شعر عنترة فى عبلة ، ووقف منه على محاسنها وسحر جمالها ، فشغف بها دون أن يراها ، ورغب أن يتزوجها ، ولكنه خشى أن يكون عنترة قد غلا فى وصفها ، وأنها دون الوصف ، أو لا تمت إليه

بسبب ، ولكن الحب يُعمى ويُصم — خشى ذلك — فكلف عجوزاً أن تذهب إليها فى دارها وتقضى معها بعضاً من الوقت لتعرف كل شىء فيها . فذهبت تلك العجوز الداهية إلى بيت عبلة زائرة ، وجعلت تتحدث إليها فى مختلف الشئون حتى عرفتها خلْقاً وخُلقاً ، عقلا وبياناً ، قريحة وبديهة ، والعجائز أقدر على استخلاص ما يرْين فى يسر وسهولة ، ورجعت إلى عمارة قائلة :

لقد كنت أكره من عنترة غلوه فى وصفها ومبالغته فى تزكيتها ومديحها ولكنى بعد أن رأيتها وجدته لم يبلغ بشعره فيها ما تستحقه ، فهى فوق ذلك وأكبر وأجل وأخطر ، وما كادت تنتهى من قولها حتى كانت عبلة عنده كل شىء فى حياته،وأصبح الحصول عليها أول شىء يفكر فيه ويسعى إليه .

لبس عمارةُ أفخرَ ثيابه وركب فى جماعة من عبيده إلى أبيها مالك ، فحيّا وسلم ، وجلس وأكْرِم، ثم قال لأبيها :

أظن أنك تعرفنى بين العرب ، فقال مالك :

أعرفك بين ساداتهم ذا نسب عريق وحسب كريم ومجد أثيل ، وغنى ممدود وأصل محمود ، فقال :

وقد جئتك فى أمر أرجو أن يقع منك موقع القبول والرضا ، فقال :

ما دام فى يدنا قضاؤه فهو لك ، فقال :

لقد رغبت أن أوثق الرابطة بين أسرتى وأسرة بنى قراد ، فقال :

أمر مشكور ولنا فيه الشرف العظيم ، فقال عمارة :

ورأيت أن يكون ذلك بزواجى من عبلة بنتك . فوافق هذا هوى فى نفس أبيها ، إذ يريد التخلص من عنترة وشعره فيها ، فقال :

لك ما أردت ، وبالرفاء والبنين ؛ فشكر له موقفه شكراً جزيلا ، وانقلب إلى أهله مسروراً ، وأعلم أخاه الربيع ما تم بينه وبين مالك ، فقال له :

لست أرضى لك هذا الزوج ، وإن كنت مصراً عليه فأنجزه قبل أن يعود عنترة ، ولتأخذ منه حذرك فإنه فارس قوى البأس عظيم المحال ، وهو يحب عبلة حباً جماً ، وربما مسك الضر منه من أجل زواجك منها ، فقال عمارة :

لا كنت إذا كان عنترة يهمنى أو يشغل بالى ؛ وعقد العزم على تنفيذ الزواج ، وإن رقف فى سبيله أصعب العقبات وأعظمها .

عاد عنترة من حملته مع مالك بن زهير ، فجلس إلى أمه وسألها عن عبلة وشئونها ، فقالت :

دع عنك الاشتغال بها والحديث عنها والرغبة فيها فقد أصبحت زوجاً لعمارة الوهاب ، ولم يبق إلا أن يدفع لأبيها مهرها ، فقال :

ومتى حصل هذا ؟ فقالت :

فى غيبتك مع مالك ، لنصرة حصين على عساف ، فقال :

وقد رضى أبوها ما تقولين ؟ فقالت :

رضيه وفرحَ به ، فقال : وأمها ؟ فقالت : بطبيعة الحال على رأى زوجها ، فقال : وعبلة ؟ فقالت :

ذلك ما لا أعرفه على سبيل التأكيد واليقين ، إلا أنى سمعت سرًّا أنها غاضبة نافرة ، حتّى قالت : لو قطعتم جسمى وألقيتموه للوحش والطير ما رضيت بعمارة زوجاً ، فقال :

وهل ذكرتنى حين رفضت ؟ فقالت :

ذلك ما لم يُقَل . فقال :

ألا تعرفين ما حمل عمى على ذلك ؟ فقالت :

خشى العار أن تكون زوج ابنته ولا نسب لك فى زعمهم ، وغره مال عمارة وثراؤه ونسبه ، فقال :

لا يزال القوم فى ضلالهم القديم ، ولئن تعرض عمارة لعبلة لأقتلنه شر قتلة ، وهز رأسه قائلا :

وإن أمره لا يهمنى ما دام مصيره فى يدى ، فقال أخوه شيبوب وكان حاضراً :

أنا أمضى إليه الآن فى ظلام الليل ، وأذبحه بسيفى دون أن يشعر أحد من الناس ، وتنتهى بذلك قصته ، فقال عنترة :

أمهلنى قليلا حتّى أذهب إلى الملك زهير وابنه مالك ، وأخبرهما لأقف على رأيهما ، فعسى أن يكون عندهما من الرأى والتدبير ما لم يخطر لنا على بال .

وانفلت عنترة فى صباح تلك الليلة إلى مالك وأخبره فقال :

الرأى عندى أن تصبر قليلا حتّى أطلب إلى أبيك أن يلحقك به ، فإن فعل خاطبنا عمك فى زواجك من عبلة ، وضمنا له ما يطمع فيه من مال ، وإن أبى شداد ورفض طلبت من عمك عبلة لنفسى وأعلنت أنها لى ، وحينئذ ينقطع طمع عمارة وغيره فيها ، ثم أرجئ دخولى بها من حين إلى حين ، حتّى يعرف القوم حقك ، ويحملوا شداداً على الاعتراف به ، وإذ ذاك تكون عبلة لك دون سيف يتحرك ، أو دم يراق ، فقال عنترة :

لا زلت موفقاً فى رأيك وتدبيرك .

١٧

خلا مالك بنُ زهير بشداد بن قراد فى داره ، وتلطّف له فى الحديث حتّى أنس ثم قال :

لقد علمت يا شداد وعلم جميع العرب فضل عنترة وشجاعته ،

وكم له من أياد بيضاء علينا لا ينكرها إلا لئيم ، فقال :

ذلك ما كان ، فقال :

وقد حكم قاضى العرب أنه ابنك ، فما يمنعك من إلحاقه بك وإعلان ذلك ؟ فقال شداد :

لم يفعل قبلى مثل ذلك أحد من سادات العرب ، وأرى فيه مساساً بشرفى ، وفضيحة لقومى ، وخروجاً عن عرف العرب ، فيه من الفضيحة ما لا أطيقه ولا أحتمله ، فقال مالك :

فلتكن أنت أول من يشرع للعرب شريعة جديدة ، ما دامت حتمًا ، والحق مشرق الفضيلة ولا غضاضة فيه لدى النفوس الكريمة والعقول السليمة ، أليس من الظلم أن تجعل الولد فى رحم الحرة فيكون ابنك ، وإن جعلته فى رحم الأمة برئت منه براءة القميص من دم يوسف ؟ ! فقال شداد :

أرى أن تمهلنى حتى أنظر فى هذا الأمر على ضوء من مشورة أهلى وعشيرتى ، فقال :

لك ذلك وأرجو لك ولعشيرتك توفيقاً وسداداً .

وخلا مالك بعنترة بعد انصراف شداد ، وقص عليه ما دار بينهما من الحديث ، فقال عنترة :

لا ركبت بعد الآن فى قوم شداد حصاناً ، ولا حضرت لهم ضرباً

ولا طعاناً ، ولا سكنت بينهم أوطاناً ، ولا رضيت لنفسى معهم ذلا وهواناً ، وسأغادرهم متخذاً من سيفى ورمحى أبى وعمى ، فقال مالك :

ولن تبرح لك وطناً ما دام فى صدرى نفس يتردد ، وسيكون ما تريد على الرغم من حسادك والحاقدين عليك ، ثم أمر بالطعام فطعموا ، وقضوا وقتاً من الليل فى أخبار العرب ، والأحاديث المتنوعة .

١٨

كان عمارة الوهاب فى تلك الليلة فى بيت مالك بن قراد يتشاوران فى أمر عبلة ، وكيف ومتى يكون دخوله بها ، وبينما هو عائد إلى داره فى جماعة من عبيده ، التقى بعنترة وهو عائد من بيت مالك بن زهير ، ومعه أخوه شيبوب ، فسأله عمارة :

أين كنت البارحة يا بن زبيبة ؟ فإنى لم أرك بين العبيد فى بيت عبلة ، ولو رأيتك لخلعت عليك خلعة ثمينة ، لما وجدتُه من سادتك من كرم ومروءة ، فأجابه عنترة :

ولن أقبلَ منك خلعةً حتى تزف إليك مولاتى عبلة ، وهذا إن تركتك حياً ، ولم أجعله أشأم عرس شهده العرب ، ويظهر أن سوء طالعك ساقك إلى عبلة، لتلقى بسببها حتفك وتكون عبرة للمغرورين من أمثالك .

لم يكن عمارة يتوقع هذا الوعيد الصارخ ، فاستكبر وقال :

ويل لك يا أنكر العبيد ! هل أصابك الجنون ؟ أو هانت عليك نفسك وعرضتها للهلاك ، وشرف العرب لئن ذكرت عبلة بعد هذا فى شعرك ، لأقتلنك فى ضوء النهار ، فقال عنترة :

إنك لن تستطيع أن تضرب كلباً بسط ذراعيه أمام بيتى ، ولولا ما بيننا من حرمة النسب لطار رأسك بسيفى هذا ، فاغتاظ عمارة وجرد سيفه وسل عنترة سيفه ووثب على عمارة وثبة كادت تصرعه ، ولكن شيبوباً أخا عنترة قفز قفزة كان بها بينهما ، وحال بين عمارة وموته ، وكان الخبر قد وصل إلى بنى قراد ، وقوم الربيع بن زياد ، والملك زهير ، فأسرعوا جميعهم إلى مكان الحادث ، وهناك أصبح الأمر فى يد الملك زهير .

أقبل عمارة على زهير وقال :

لقد أصبحنا لا نستطيع مقاماً وهذا العبد بيننا ولولا قدومك الساعة لأفنى بسيفه من ترى من هذه الجموع ، ومع هذا فإنك تقربه وتثنى عليه فإما كفيتنا أذاه وضره ، وإما رحلنا وفى الأرض متسع لمقامنا ، فقال زهير :

وما سبب هذه الفتنة التى قامت بينكما الآن ، فقص عليه قصته فى أمر عبلة وسعيه إلى زواجها حتى التقى بعنترة :

عرف زهير أن عنترة مُعتدًى عليه ولكنه سألهم :

وما تريدون فيه الآن ؟ فقالوا :

القتل أو النفى ، فقال :

أما القتل فلا سبيل لأحد فيه ولا أرتضيه ، إذ أنه دخل دارى وطعم زادى ، وأما نفيه فالأمر فيه إلى شداد أبيه ، وعرض الأمر على شداد فقال :

ليس لى غنى عن أخى ابن أمى وأبى ، وأما نفى هذا الغلام وهو يحسن الضرب والطعن فذلك ما لا أقره ، ولا نطمئن على أنفسنا منه إذا أقدمنا عليه ، وأرى أن يقوم برعى الجمال والأنعام ، ولا يخوض غمرات الحرب والقتال ، فقال زهير لعنترة :

لقد سمعت قول شداد فانظر ماذا ترى ، فقال عنترة :

أن أطيع وأمتثل ، فأطفئت بذلك نار الفتنة وساد السلام .

لم يكن هذا الحكم يرضى زهيراً ، فما كان للملك قوى عادل أن يبطل مواهب أحد من رعيته ، له ولهم فيها كل صلاح وغناء ، ولكنه مشغول بأمر عظيم آخر ، ذلك ما جعله يسكت عليه إلى حين ، حتى ينتهى من أمر أميمة بنت حنظلة .

١٩

كان عنترة قد سبى أميمة بنت يزيد بن حنظلة وقتل زوجها نائل ابن الجراح ، فاستعان أبوهما بقبائل العرب الخاضعة له ، ليرد إليه ابنته ، وكانت فى بيت الملك زهير ، وبلغ زهيراً أمر هذه القبائل وتحركها إليه

ليقاتلوه ، ولهذا سكت عنه الغضب من أجل عنترة ، والحكم عليه باعتزال القتال والجهاد والاقتصار على رعى الأنعام ، ونادى فى قومه :

استعدوا وقوموا لقتال يزيد بن حنظلة الذى جاء لمحاربتكم فى دياركم ، وسنسير إليه من غدنا حتى نلقاه بعيداً عن ديارنا .

وأخذ الناس يستعدون للخروج للحرب فى صباح الغد .

أما عنترة فهو على يقين من أنهم محتاجون إليه فى قتالهم هذا ، ولكن أى موقف يختاره من قومه : أيقاتل معهم ؟ أم يتركهم رشأنهم ؟

وجاء الصباح فنهض عنترة إلى عمله ، وأمر أن تساق الجمال والأنعام إلى المرعى تحت إشرافه ، وكان الحى مملوءاً بالفرسان استعداداً للرحيل إلى ذلك العدو الزاحف .

وترك زهير فى الحى خمسمائة فارس ، وعلى رأسهم ابنه شاس ، خشية أن يختلف طريقا الجيشين المتقابلين ؛ جيش زهير وجيش يزيد ، وترك معه أخاه قيساً المعروف بالعقل وصواب الرأى . وكان من الذين تخلفوا فى الحى شداد وأخواه مالك وزخمة الجواد ، وذلك تدبير حكيم عرف به عقلاء العرب .

وصدقت فراسة زهير ، فقد انفلت الجيش إلى الأحياء بألرفه المؤلفة ، دون أن يلتقى به زهير ، وما كانت تلك القوة المخلفة فى الأحياء بقادرة على أن تصد هذا الجيش الذى لا تحصى جنوده .

ثم رآه الرعاة على مد البصر وهو مقبل فارتدوا إلى الحى مسرعين ونادوا :

أن جاءتكم الجنود الزاحفة ، فخفوا لملاقاتها ؛ ونادى قيس فيهم :

أن هبُّوا أنفسكم للموت توهب لكم الحياة .

التقى الفريقان بعيداً عن البيوت ، وكانت المعركة حامية ، ثقيلة الوطأة على بنى عبس ، وعنترة لا يهتم بهم ، ولا بما أصابهم ، ورأى أن فى ذلك فرصة لنيل ما يريد ، فاجتمع بأخيه شيبوب يستشيره فى موقفه من تلك الداهية ، فأشار عليه أن يستمر على عزلته حتى يعترف شداد وأخواه ببنوته

* * *

قال مالك لأخيه شداد :

أين عبدك عنترة ؟ أليس هذا يومه ؟ لو كان معنا ما هزمنا العدو ولا غلبنا ، فأجابه فى عتب وألم :

إنك سبب هذه البلية ، فقال :

وكيف كان ذلك ؟ فقال :

أنسيت أنك بخلت عليه بابنتك وهددتنا بالخروج من الديار إن لم يسكت عن ذكرها فى شعره وطلبها لنفسه ؟ فقال :

وأين هو الآن حتى نطلب معونته ؟ والتفت شداد ، فرأى عنترة واقفاً

على سفح العلم السعْدى ، وفى وجهه ابتسامة السخرية والاستهزاء ، وأخوه شيبوب ينفخ فى مزماره سروراً بذلك القدر الذى إن أمهل الظالم فلن يُهْمله ، فأسرع شداد ومالك إليه وصاح أبوه فى وجهه :

أتلهو يا عبد السوء بسماع المزمار وبنو عبس على هذه الحال من الهزيمة ؟ ! فقال :

وماذا ترى أن يفعله عبد غرّ ، لا يحسن إلا الحلب والصر ؟ وشغل نفسه بالجمال يسوقها كأنه يصلح من شأنها وهو يقول فى غير اهتمام :

أنسيتم عمارة الوهاب وضخامة جسمه ؟ أنشدوا عنده النجدة ؛ فقد رأيتم فيه العز والقوة ، فقال مالك :

ليس لنا فيه الآن نفع ولا أمل ، فقال عنترة :

الآن ! ! الآن ! ! وماذا كان لكم فيه قبل الآن ؟!! فقال شداد :

نحن فى أحرج المواقف ، وليس لنا الآن غيرك ، فقال عنترة :

والآن أيضاً ؟ ! وضحك ضحكة ساخرة ؛ ثم قال :

وأنا الآن ليس لى عمل إلا ما كلفتُ به من رعى الأنعام ؛ واستمر يسوق الجمال تاركاً أباه وعمه فى موقفهما ساكتين مذهولين ، فأسرعا إليه ثم قال شداد :

ما عهدناك قبل الآن بارد القلب فاتر الحماسة فى مثل ما نحن فيه الآن ، فماذا جرى ؟ فقال :

جرى أنكم ظلمتم أنفسكم وظلمتم الناس معكم ، فحرمتمونى أباً جاء بى من صلبه ، وسلبتمونى حق الحرية ، واتخذتمونى عبداً ، والعبد لا يحسن الفر والكر ، وإنما يحسن الحلب والصر ، فقال أبوه :

يا عنترة ، كر ، فأنت بعد اليوم حر ، وقال عمه :

والآن قد ألحقتك عبس بأنسابها ، وأصبحت من أحرارها وساداتها ، وعزيز على السيد الكريم أن يتقاعد عن نصرة قومه ، ودفع ما حل بهم من الضيم ، فقال عنترة :

وبعد الآن ؟ فقال مالك :

لك عندنا كل ما تريد . وكان الأعداء إذ ذاك قد دخلوا البيوت وأسروا النساء وأسر عبلة فارس جبار يقال له سوار ، اشتهر بين العرب بسبى الأبكار ، فقال مالك ، وهو يبكى مر البكاء :

أما ترى يا أبا الفوارس بنت عمك فى يد الأعداء تساق سوق الإماء ؟ فقال عنترة :

وأين عمارة ؟ فقال مالك : لا يظهر الرجال إلا الشدائد ، وإن أزوج ابنتى إن ردّت إلىّ إلا من فارس يكشف الغم عن قومه وأهله ، وأشهد على نفسى أنك زوجها إن أنت خلصتها ، فقال عنترة :

ولكن الإنسان كثيراً ما ينقض العهود ، فقال مالك :

لن أنقض عهداً بعد توكيده ، فالبدار البدار يا بن أخى .

وكان أخوه شيبوب يسمع لكل هذا فتقدم إليه بجواده الأبجر وقال : لقد بلغت ما أردت من آبائك من المواثيق والعهود ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، فاركب جوادك ، وأنقذ قومك وأهلك .

ركب عنترة جواده وتقلد سيفه ورمحه ، ولبس لأمته ودرعه ، وانحدر من الرابية كأنه القاضية ، فلحق بسوار وهو رائح بعبلة أسيرة ، وأنفذ فى صدره رمحه فمات ، ثم أردفها خلفه وسلمها إلى أبيها وأعمامها ، ثم تركهم إلى المعركة ، فجال جولة كأنها الزلزلة ، اختلت لها صفوف أعدائهم ، وضاعت قوتهم .

ولما رأى بنو عبس ما فعله عنترة قويت قلوبهم فهبوا من مخابئهم وألقوا فى المعركة بأنفسهم ، يساعدون عنترة ، بقدر ما بقى فيهم من قوة ، وعنترة يطوف بين الأعداء ، فلا ينجو من يلقاه أو يصيبه ، وخاف الأعداء فهربوا وفروا تاركين ما كانوا قد غنموا وأسروا ، وزالت تلك الغمة بفضل عنترة وشدة بأسه .

* * *

وكان شاس بن زهير يرى ما فعله عنترة رأى العين ، فقال لأخيه قيس : كيف رأيت ما صنعه هذا العبد ؟ فقال : ما صنع إلا ما يحمد عليه ، فقال : أى حمد يستحقه ؟ ! لقد تقاعد عنا وأضرب عن مناصرتنا

حتى غرقنا فى البلاء إلى الأذقان ، وبدا ضعفنا كما يبدو الهزال فى جسم المصدور ، ثم طلع فينا كالشمس فقشع عنا سحب الهزيمة ، وفرق الأعداء هنا وهناك ، ولاذ بالفرار من لم يصبه سيفه ، واسترد كرامتنا وأصبحنا بحيث لا يطمع أحد فينا ، وتلك خطة خبيثة لا أرتضيها ؛ وإن نفسى لتحدثنى أن أهم بقتله وهو مشغول بتطهير الحى من الأعداء حتى أستريح من خبثه ولؤمه ، فقال قيس : ويكون هذا جزاء دفعه السوء عنكم ، وتنكيله بأعدائكم فى غيبة الملك وجنوده ؟!! ويل للكرام من اللئام ، والطيبين من الخبيثين ، وإنى لأخشى عليك عاقبة مكرك ، فقد بلغ من السوء مبلغه ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، فأثر هذا القول فى شاس واعتبر بعظة أخيه ، ورجع بنو عبس إلى ديارهم ، وعنترة كالأسد بينهم ، ولم ينل أعداؤهم منهم إلا أميمة بنت يزيد ، ولو أن عنترة وصل إلى المعمعة قبل أن يأخذها أبوها ويرسلها فى الحال إلى ديارها ما استطاع الأعداء إلى أخذها سبيلا .

وبينما كان بنو عبس غارقين فى فرحهم بهذا الانتصار الباهر قدم زهير وجنوده عليهم وهو لا يكاد يصدق أن يرى أثراً لدياره ومن فيها ، إذ علم أن الأعداء جاءوا إلى قومه من طريق آخر لم يسلكه ، ولكنه ما كاد يقرب من الديار ويعلم قومه عودته وقدومه حتى وجد وفوداً من الرجال والنساء خرجت لاستقباله ، وإخباره ما كان من عنترة وشجاعته ومروءته ، فسر

زهير وجلس في سادات قومه جلسة أكرم فيها عنترة ، وأعلن شداد أنه ابنه وأنه حرّ كريم .

* * *

لم يستطع شاس أن ينظف قلبه من الحسد ، ويقف من عنترة موقفاً كريماً كقومه ، فقال :

كيف يطيع شداد هواه ، ويلحق أنكد العبيد بنسبه ، ويعكر بذلك صفو أنسابنا ، التى نفتخر بها ؟ ! فأجابه قيس أخوه :

لو كانت بنو عبس تملك أعظم من هذا وقدمته لعنترة لكان قليلا بجانب ما قدمه لكم من فضل ومعروف ، وما كنا نتوقع من حرّ كريم يقول قولتك ، ولو أن الناس كانوا حساداً مثلك لا نتشر الشر بينهم . وقال أحد الجالسين :

ومن يستطيع أن يحجُبَ الشمس بيده ، وينكر فضل عنترة ؟ !

فقال زهير :

جدير بنا أن نعظم عنترة ، ونحقق له أمنيته ، وإن انتسابه إلى أبيه حق لا شك فيه ، فقال عنترة :

لا زلت بالعدالة والفضل معروفاً ، ثم استطرد قائلا :

وقد عزمت على أن أطلب من عمى مالك أن يفى بعهده ويزوجنى

من عبلة ، فإن نقض ميثاقه أخذت لى فى الفلاة مقاماً أقطع السبيل وأنهب الأموال وأثير الفتن وأجعل كل حى ينعى ساكنيه ، فإنى بعد هذا لا أستطيع أن أعيش فى هوانة وذلة ؛ فأعجب الملك بموقفه ، ومنحه هدايا ثمينة ، تقديراً لفضله ورجولته .

(إلى هنا ينتهى الجزء الأول)

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٤